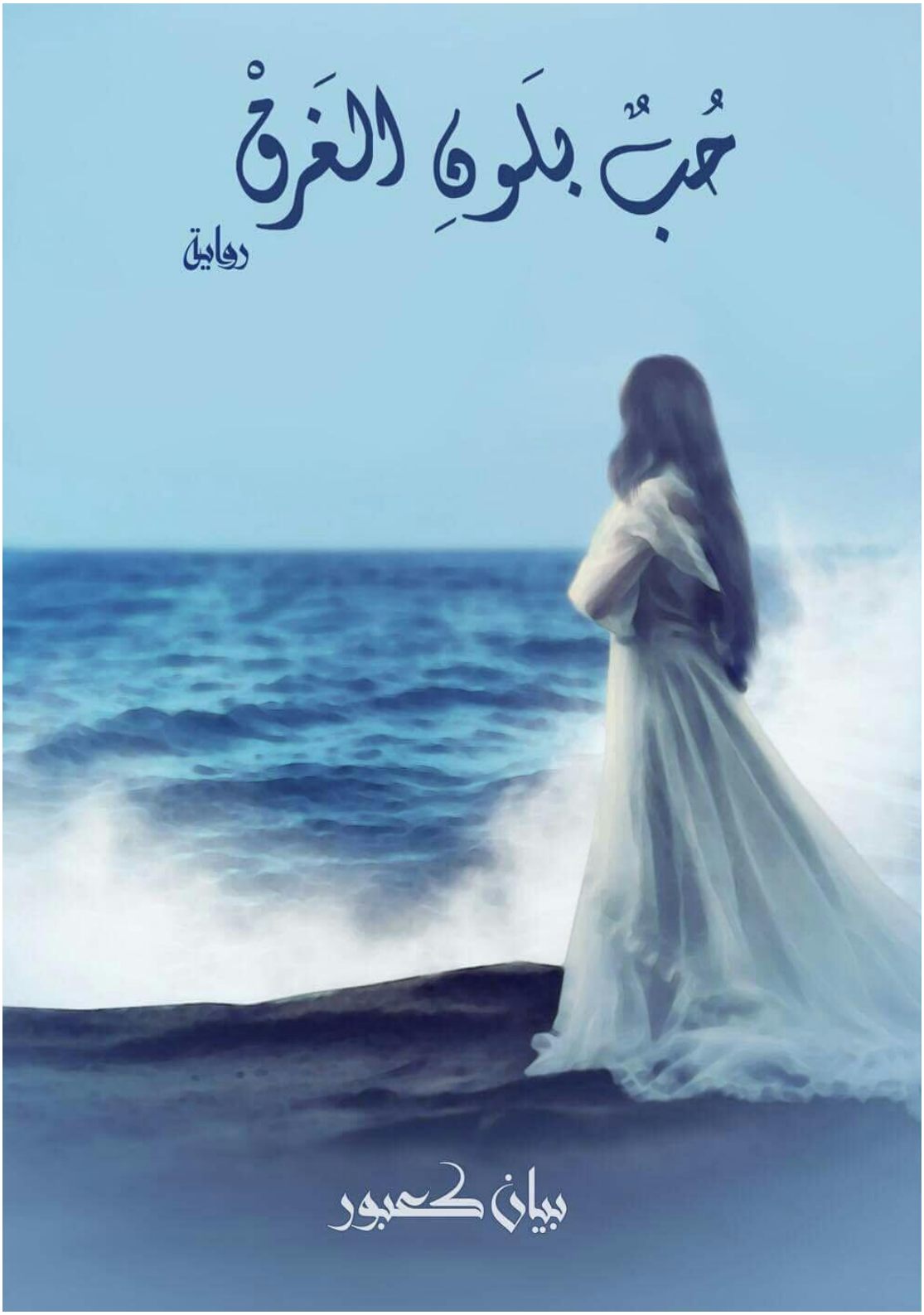

حُبٌ بلونِ الغَرقْ
رواية
بيان كعبور

حُبٌّ بِلَونِ الغَرَقْ

بقلم: بيان شكيب كعبور

تصميم الغلاف: هُمام المر

تنقيح لغوي: نور الهلالي

(إهداء)

إلى أولئكَ الذين لا يبتسمونَ كثيرًا . . .

الذين تعرفهم منذ دهرٍ ولم تكتشف إلا مؤخرًا أنَّ لديهم غمازات خدين رائعة. . . .

الذين أصبح الرقم ١١١ رقمًا ثابتًا بين حاجبيهم لأنَّهم يُركّزون بشيءٍ أنتَ ببساطة عاجزٌ عن رؤيته. . .

الذين عندما يصافحونكَ تكون أيديهم باردة، هذا إنْ صافحوك. . .

إلى أولئك الغير مُهتمين بممارسةِ الشطرنج أو التنس أو أيّ نشاط يحتاج لأكثر من شخص واحد . . .

إلى أولئك الذين تكون أيديهم مشغولةٌ دومًا بحراسة وِحدتهم. . . .

بحراسة حُريتهم. . . .

بيان

حَبوا بعضن . . . . تركوا بعضن

رسالةُ اليوم أثارت استغرابي.

ورقةٌ مصفرّةٌ سقطتْ من رواية (دافنشي كود) عليها بُقعةٌ داكنة، قد تكون قهوةً أو كاكاو، أو أيَّ مشروبٍ آخر يحتوي كميةَ كافيين كافية بحيث أيقظ الرسالة في وقت كهذا الوقت، لتتثاءب في وجهي وتتمطط أمامي بغنج، ثم تبدأ حروفها المفرطة النشاط بالقفز على جُدران ذاكرتي . . . .

(مثلما قاسمتني مرّةً الفطيرة الساخنة وأعطيتني الجزء الأكبر والغارق بالشوكولا . . .

مثلما قاسمتني رداءَك تحت المطر وغطيتَ به خُصلَ شعري وابتلَّ الجزء الأكبر منك . . . .

مثلما قاسمتني فنجان قهوتكَ وتعمَّدتَ أنْ تضع شفاهكَ على الحافة الحمراء . . .

قاسمني قلبكَ. . .ولتكن هذه المرة القِسّمة عادلة، أريدُ ذلك القسم الصغير الذي تخبئه عني وتحتكره لكَ . . . فالعدل لي ولكَ . . .أن أمتلكه.)

ربما توقعتُ أنْ تغفو هذه الرسالة لفترةٍ أطول ريثما تدخل أحاسيسي تجاهها وتجاهكَ بمرحلةِ سُباتٍ أبدي، لكنها استيقظَتْ قبل أوانها .

هل كان يجدر بي أن أُصغي لنصائح أصدقائي ؟ !

أنْ أتخلص من كُلِّ ما يربطني بكَ من هدايا أو كتبٍ أو حتى خواطر .

لكنني لم أؤمن يومًا أنَّ هذه هي الطريقة السليمة للنسيان، فالنسيان بنظري وهمٌ لا وجود له .

هو كيانٌ نُسِيَ لحظة تكوينه . . .نُسي بحيث أصبح فارغًا من محتواه.

ما بين أيدينا الآن ليس النسيان وإنّما القدرة على التعايش مع الذكريات.

وهنا يكمنُ ذكاء هذا الكيان غير الموجود.

ذكاؤه يكمن في مواجهة الذكريات بحيث تتخدَّر أحاسيسنا تجاهها، ففي كل مرة نتجاهلها ونذير ظهرنا لها ستنتهز فرصتها لتنقضَّ علينا من الخلف . . .لتلتهمنا دفعةً واحدة.

وها أنا اليوم أقف أمامها وجهًا لوجه، ألمسُ يديكَ عندما ألمسُ (دافنشي كود) وألمسُ صدرك، دون أن يرتعش قلبي أو أنْ تحمرّ شفتاي.

قبل زمنٍ ابتعنا هذه الرواية معًا، أذكرُ كيف انتقيتها أنتَ من بين مئات الكتب.

أخبرتني حينها أنَّ الرواية الجيدة دومًا تناديك، تهمسُ باسمكَ حتى تجدها وتحضنها بين يديك، وكل ما عليكَ فعله هو أن تُنصتَ لهمساتها .

يبدو أنَّ الموناليزا على غلاف الرواية همسَتْ باسمك طويلًا ونجحَتْ في جعلكَ تحتضنها، بل حصلَتْ على أكثر من مبتغاها حينما خرجنا من المكتبة وبدأ المطر بالهطول. . .فخبأتَها داخل معطفكَ.

شعرتُ حينها أن الموناليزا هي الأنثى الأكثر حظًا، بلْ وحسدتُها .

كنتُ أتخيَّلها تسخرُ مني بابتسامتها الغامضة، وهي تغفو على صدركَ، تنتهزُ عتمةَ معطفكَ لتلتهم بشفتيها دقات قلبكَ . . .

تَفُكُّ عقدة يديها لتعانقكَ، ويسقط ثوبها الأسود على قارعة الطريق، وما حاجتها لثوبها وهي جافة دافئة داخلكَ أما أنا فمبللةٌ بغيرتي وبالمطر وبكَ.

مبللةٌ حتى الغرق أطفحُ بنفسي خارجي لأمتلئ بكَ. . . . لأكون كأسكَ المقدسة.

أمسكتَ بروحي تحت سماء كانون الثاني، واجتزتَ بها طريقًا تسيلُ على خصره السماء وينيرهُ ضوءٌ أصفرٌ عتيق، فهل هناك طريقٌ أسرعُ من هذا الطريق لإيصال صديقين إلى شارع الحب؟ !

صديقين كنا لا ينتهي يومهما إلا بأحاديث ليلية طويلة، ولا أدري حتى الآن كيف انتهى ذلكَ اليوم دون أن تُكلمني ليلًا ودون أن أراسلكَ.

كم كنت بحاجةٍ لأخبركَ يا صديقي بتفاصيل ذلك اليوم.

أنني قد سامحتكَ لأنكَ تأخرتَ عن موعدنا عشرَ دقائق . . .

أنني قد ندمتُ على لومي إياكَ لأنكَ أرغمتَني على ارتداء ملابس ثقيلة قبل خروجي للقائكَ.

أنني لم أنزعج منكَ عندما تعمَّدتَ أن تطأ حذائي لتثير غضبي، بل تصنعتُ الانزعاج لأُخفي خجلي من قدمي التي بدَت عملاقة داخل حذائي المحشو بالفرو بجانب قدمكَ، كنتُ أريد أن أخبرك أنك كنتَ مُحقاً بأنّ مصممي الأزياء يبتكرون أشياءً غريبة وأنني أكثر غرابةً منهم لأنني أرتديها .

كنتُ أريد أن أخبركَ أنّ صوتَ الرعد لم يُخِفني، ولم أعتقد لوهلةٍ أنَّهُ صوت قذيفة كما كنتُ قد أقنعتكَ، بلْ حينها تصنعتُ الخوف لأُمسكَ بزندكَ .

أنني لاحظتُ ارتباككَ وأنتَ تتعمّدُ وضع يدكَ في جيبك كي لا تلامسَ يدي عن طريق الصُدفة .

أنَّ لون عينيكَ تغيَّر مئة مرة، وشعرتُ بنفسي غارقةً في مجرّة، ولونُ عينيكَ لا يتغير مصادفةً يا صديقي . . .

تمنيتُ حينها لو تضاءلَ حجمي لأُصبحَ صغيرةً جدًا بحيث أتسع في جيبكَ، وعندما تصل إلى غرفتك أقفز منها لأختبئ خلف وسادتكَ.

لأرى كم مرَّةً قد تحاول الاتصال بي أو كم مرة قد تتصفح محادثاتنا القديمة أو كم من الوقت ستقضيه لتتأمل صورةً لي، ثم أخرج من خلف الوسادة حينما تغفو كي أسحب الغطاء بكل ما أوتيتُ من قوة لأغطيكَ جيدًا . . . وأستند برأسي الصغير على خدكَ، لتتطاير خصل شعري أمام أنفاسكَ.

في تلكَ الليلة شعرتُ أنَّ فوق قلبي مساحةً خاويةً بغيابكَ بحيث تتسعُ السماء لم أجد لملئها إلا وسادة، اندسستُ بين ضُلوعها القطنية بحيث لامسَتْ قلبي لينبض داخلها . . . . قبَّلتُها آلاف المرات . . . قاسمتُها شراشفي وتركتُ لها الحيِّز المريحَ من السرير، دندنتُ لها فنامَتْ وبقيتُ أنا ساهرة.

في تلكَ الليلة عجزتُ عن محادثتكَ.

حدثتُ الوسادةَ عنكَ. . . . بل تحدثتُ إليها على أنها أنتَ.

وتساءلتُ حينها: كيف للأرقِ يومًا أن يتنكَّرَ بوسادة ؟!

منذُ ذلك الحين أدركتُ أنَّه يُمكن للأرقِ أنْ يتنكَّر بالشراشف والأسرَّة والوسائد.

كما يُمكن لي أنْ أتنكَّر تارةً بي وتارةً بكَ.

أن أتنكَر بيدكَ. . .أن أتنكّر بشفتيكَ.

لأعانقني وأُقبلني، ولأعانقكَ وأُقبلكَ.

هذه الحفلات التنكرية لم تكن بحاجةٍ إلى أزياء أو أقنعة.

يكفي أن أسترخيَ على سطح أوراقي لتمتصَّ من مسامي كل الأسرار، لأودِعها بعد ذلك في أحد كتبي، فقد كانت الكتب غرفتي

السرية التي أدسُّ فيها خواطري وأعتبر كل خاطرةٍ تقع من كتاب رسالةً مني .... إليَّ.

دومًا كانت رسائلي تصلُ إليَّ في الوقتِ المناسب، لكن هذه الرسالة كنتُ قد نسيتُ أمرها تمامًا حتى أنني لم أشاركَ إياها بعد أن بُحتَ لي بمشاعركَ.

ربما لأنَّ كل أنثى ترغب أن تشعرَ أنها الأميرةُ المنشودة، وأنَّ أميرها سيخوضُ في غابة الأشواكِ، وسيغوصُ في البحيراتِ المسحورة، وسيجابهُ التنانين العملاقة، وسيسيّر كل جنوده للبحث عنها .

لكنها في الحقيقة هي التي تُسخِّرُ له سيفًا مسحورًا يمَكنُه من تجاوزِ الأجمات المتشابكة، وتضعُ لهُ طوافاتٍ ليجتاز بها البحيرات وتروّض التنين من أجله، بل قد ترشو جنوده أيضًا ليجدوها .

الأميرة هي التي تختارُ الأمير دومًا لكنها تقنعهُ أنّه هو من اختارها .

تجلس في بُرجها العاجي وتَطلي أظافرها بلونٍ يُحبه الأمير، لتضع يدها على وجهها وتتصنَّع الخجلَ والبلاهة حينما يُصرِّح لها بِحُبه.

الأميرةُ ذاتُ الوجنتين المحمرّتين والعيون الواسعة البريئة والضفائر الطويلة ستأخذ مهلتها في التفكير أو هكذا سيعتقدُ الأمير المسكين.

أما الحقيقة هي أنّ الأقزام السبعة والساحرةَ الشمطاء وتُفاحتها المسمومة وزوجة الأب الشريرة وابنتيها . . . . جميعهم يعملون لحساب هذه الأميرة.

فهل تعتقد أنَّ رابانزل كانت لتُنزل ضفائرها لو لمْ يَسلب الأمير قلبها ؟

كُل ما عليها فعله الآن أنْ تجلسَ على كُرسيٍّ وثير وتراقب من وراء الكواليس، أن تُسرِّح خُصل شعرها وتَرش عليه (سبراي) مضاد للانزلاق، كي يصل أميرها إليها في الموعد الذي اختارتْهُ مسبقًا بعناية.

ولم أُضِع أنا لحظةً واحدةً في كواليسي، فقد كنتُ أُهرول بحثًا عن حذاءٍ يجعلُ قدمي تبدو سندريليةٍ هذه المرة . . . .

عن عطرٍ يليقُ أن يختلط بأنفاسكَ . . .

عن كنزةٍ بأكمامٍ ناعمةٍ طويلة تختبئُ فيها أصابعي، ولا يظهر منها إلا رؤوسها لتُغري أصابعكَ بمغازلتها، عن لونٍ لا يُلائم بشرتي فحسب بل يُلائم لون عينيكَ.

وقفتُ أمام مرآتي. . . . تأملتُ نفسي. . .

للمرةِ الأولى منذُ زمنٍ طويلٍ وجدتُ أنني لا أحتاج إلى مساحيقِ تجميل، وما حاجتي إليها والحبُّ يُغرقُني ألوانًا، يَفترِشُ بشرتي كمُرطبٍ باركةٍ عالمية فتصبح متألقةً ناعمةً كبشرة طفلٍ في شهره السادس . . .يجعل أهدابي أطول بمرتين . . . وشفاهي تبدو أكثر امتلاءً ودموية.

شعرتُ حينها أنَّ شفاهي تُمزقُها مزارعُ الكرز، تنتفضُ على كُل حدودها، تنبضُ وتثورُ على السياج لتَنضجَ دفعةً واحدة.

وما الحبُّ إنْ لم يَكُن بشرةً مُخملية، وشفاهًا كرزية، وروحًا مفترشةً بالبنفسج.

اكتفيتُ بوضعِ قليلٍ من الكُحل، فقد كنتُ بحاجةٍ إلى إطارٍ لعينيَّ كي تحضنَا إشراقتكَ.

أشعرُ هذه اللحظة أنَّني أراكَ فعلًا وأنتَ تقتربُ مني بمعطفكَ الكُحلي، وبخصلِ شعركَ التي تلتمعُ تحتَ شمس الشتاء الخجولة، فتبدو كفارسٍ من العُصور الوسطى، متأخرٌ كعادتكَ تفوح منكَ رائحةُ عطرٍ دافئٍ عميق.

لم تكن كلماتُ التحية والوداع موجودة في قاموسكَ، كنتَ دومًا تَحضُر دون سلام وتذهب دون سلام، فهذه الكلمات كانت بنظركَ كلمات

مفتاحية للعلاقات الضعيفة تُلقِها لتفتح بابًا مع الغرباء، أمَّا أشقاء الروح فأبوابهم مفتوحةٌ دومًا .

لم أذكر مرةً قُلتَ لي في نهاية محادثة ما تُصبحينَ على خير، كُنتَ تَختفي في وقتٍ غير متوقع وتظهر في وقت غير متوقع، كما لم أذكر أن قُلتَ لي مرَّةً صباح الخير.

وعندما كنتُ أحتجُّ على ذلك كنتَ تحتضنُ احتجاجي بألذِّ تبرير:

(**هل تلقينَ أنتِ على نفسكِ تحيةَ الصباح عندما تستيقظين أو تودّعين نفسكِ قبل النوم؟ ولماذا تُراني أفعل أنا ذلك. . .فأنا أنتِ أكثر مما تظنين**) ثم تغمزُ لي بعينيكَ.

على الرغم من أنَّه كان صباحًا يرتدي قبعةً شتوية. . .

إلا أنكَ همستَ لي (ما رأيكِ بكوبٍ من المثلجات) ؟

وهل هنالك مجنونٌ كأنتَ يا ليث؟

الجميع قد يُدفّئون أوصالهم في صباحٍ كهذا بكوبٍ من الشاي أو النسكافيه، وأنتَ تدعوني لمقاسمةِ جنونكَ الصباحي بمثلجاتٍ باردة.

تعمَّدتُ أن أطلب نكهةً مُختلفة عمَّا قد طلبتَه أنتَ كي أتذوقَ القليل من صحنكَ . . .كي أتذوقَ القليل منكَ.

خلال لحظاتٍ مشينا على الرَّصيف كمن يمشي على صفحةٍ من الماء، عاشقَين مجنونَين يخفيان شمس عشقهما ببرودةِ أربع كُراتٍ صغيرة من المثلجات.

لم تتوقفْ عن الحديث هذه المرة، وكنتُ أنا مستمتعة بكلماتكَ ذات اللكنةِ الاستهزائية التي تنذرُ بأنك قد عُدتَ إلى طبيعتكَ، وكنتُ مستمتعة أكثر برائحةِ الفانيليا وجوز الهند التي تفوح من أنفاسكَ وأنتَ تُحدثني عن روايتكَ التي تقوم بكتابتها .

وأتساءل هل لي مكان داخلها ؟

هل ستحملُ البطلةُ لونَ بشرتي وعينيَّ؟

هل ستخرجُ إلى (شُرفة الرواية) صباحًا لتسقي نباتاتها الصغيرة؟ هل ستتناولُ مساءً البيتزا كما أُحبها سميكةً بصلصةٍ إضافية لتسيح الجُبنة بين الصفحات؟

ماذا إن ألصقتُ أذني بغلافها، هل سأستمع إلى مقطوعة Half moon التي لا يمرُّ يومًا دون أن تُدغدغَ أذناي؟

هل سيكونُ مشروبها المفضل عصيرُ الكرز المثلَّج الذي أعشقه؟ هل سأشعرُ بحموضته وحلاوته وأنا أرتشفُ حروف الرواية؟

هل ستكون بشعرٍ طويلٍ تعجز عن قصّهِ لأنها تعتقد أنَّ روحًا غجريةً متمردةً تسكنه، هل سألمسُ خصل شعري مضفورةً بأحد الفصول؟

هل ستكون مُغرمةً بالقطط مثلي؟ هل ستقفزُ من الفهرس قطةٌ رماديةٌ صغيرة لتستقرَّ بين يدي!

كم كنتُ أتمنى أن أكون بطلةَ هذه الرواية، أن تحوّلني إلى شخصيةٍ ورقيةٍ لأرى نفسي كما تراني عيناكَ.

يبدو أنني سرحتُ في تفاصيل أمنيتي، وعندما عدتُ من حُلمي تعثرتُ بعينيكَ . . . .

رأيتُ فيهما الأزقة الدمشقية العتيقة.

رأيتُ الياسمين يتدلى من جدران منازلها، ويعرِّش على أطراف أهدابكَ.

رأيتُ خيال شابٍ وفتاةٍ ممسكين بأيدي بعضهما البعض وغارقين في بحيرةِ دمعٍ ودمٍ غائرة في أعماق نظرتكَ.

قُلتَ لي:

_ (الياسمين الأحمر) . . . سيكون اسم الرواية.

سألتكَ:

_وهل للياسمين ألوانٌ أخرى غير الأبيض يا ليث؟

أومأتَ برأسكَ:

_أزهار الياسمين قد تكون بيضاء أو صفراء أو قُرنفلية اللون.

_واللون الأحمر؟

_الاسم رمزيٌ يا ورد.

أخرجتَ من جيبكَ دفتر ملاحظات عسليّ اللون وقلَّبتَ صفحاته وصولًا إلى صفحةٍ تحملُ عنوان (الياسمين الأحمر)، ووضعتَه بين يدي.

دمشقُ ابقِ معي

دمشقُ لا تفقدي الوعي

ليس بكرزٍ ما بين يديكِ

إنَّه ياسمينكِ قد احمرّ

لا تبكِ.... لا تجزَعي

سنغسلهُ. . . . سنسقيهِ

أنا وآخرون كُثر. . .بغيم المدامعِ

أنا اليوم داخلكِ. . .وأنتِ اليوم داخلي

استجمعي قواكِ. . .استجمعي

هيا بنا إلى مهجعي

إلى أحلامي. . . . إلى أوراقي

إلى حروفٍ عانقَت أصابعي

استلقِ على وسادتي

وسادتي منزل الحُلم

ولكِ أن تستلقي في هذا المخدعِ

فأنتِ الحلم . . . . والحلم أنتِ

نامي بطرحتكِ وفستانكِ لا تخلعي

ففرسانٌ كُثر . . .يجمعون المهر

أنصتي . . .

حوافر أحصنتهم تدقُّ مسمعي

عندما قرأتُ هذه القصيدة وجدتُ نفسي سخيفةً وأنانية لأنني كنتُ أفكر في الأصُص الملونة والبيتزا والقطط .

_إذن ستكون عن الوضع السوري؟

_قصة حُب في زمن الحرب، وسيتخلل بعض الأحداث قصائد فبطل الرواية سيكون شاعر .

حاولتُ أن أُخفي حماستي وسألتكَ:

_والبطلة؟

ابتسمتَ ثم عقدتَ حاجبيكَ لتبدو بمظهر جَدِيٍّ:

_لازالت ملامحها ضبابية في ذهني.

عادَت لي أفكاري الأنانية الشقيّة، فأدرتُ ظهري للطريق وبدأتُ أمشي بطريقةٍ عكسية، بحيث أصبح وجهي مقابلًا لوجهكَ، أمسكتُ كُمَّكَ كطفلةٍ مشاكسةٍ وقُلتُ لكَ:

_ليث...

هل ستكونُ بطلة الرواية أجمل مني؟

قطفتَ ورقة شجر ووضعتَها على شعري:

_الآن أصبح لوردتي أوراق.

لم أكن أطمع بأجمل من هذه الإجابة .... لكنني أمسكتُ ورقةَ الشجر وأبديتُ انزعاجي منك.

_أنتَ تُخرّب تسريحةَ شعري.

عدتُ لأمشي بجانبكَ من جديد، وأعطيتُ وجهي للطريق. . . . وقلبي لكَ.

طريقٌ على جانبيه أشجار من الصنوبر وفي منتصفه وجهين مبتسمين، محمرّين، وصامتين.

اخترتُ الصمتَ بإرادتي هذه المرة، فأنا أعلم كم تُقدّس الأشجار وأنكَ تعانقها ورقةً ورقة حينما تنظرُ إليها.

لقد أخبرتني مرةً أنَّ الأشجار حكيمة، وأنني يجب أن أكلمها بصمت. أن أبوح لها بمشاكلي وهي حتمًا ستجد لي حلًا إن وثقتُ بها وأنصتُ إليها بهدوء.

أَحْنَتْ الريحُ شجرةً عملاقة، فبدَتْ لي من بعيد كمعلمٍ روحيٍّ حكيم يمشي بخطىً بطيئةٍ نحوي.

رتبتُ أفكاري في حضرتها، أغمضتُ عينيّ وهمستُ بقلبي:

صنوبرتي . . . . يا صنوبرتي . . . أريد أن أشكو لكِ صديقي فكُل جزءٍ من أجزائه ينطقُ بجُبي إلا لسانه.

لكنكَ لم تسمح لي أن أُكمل شكواي أو أنهلَ نصيحةً منها . . .

أمسكتَ يدي وهرولتَ. . .

_ها قد وصلنا .

كنتَ قد أدرتَ ظهركَ لباب مدينةِ الملاهي الضخم، وبسطتَ ذراعيكَ، كأنك تريد استقبال فرحتي بعناق.

كنتُ سعيدةً حقًا وأردتُ أن أعانقَ كل شيءٍ من حَولي، وعلى الرغم من برودةِ الطقس إلا أَنَّه لهذه المدينة دفءٌ خاصٌ تكتسبه لحظةَ دخولها من ضحكاتِ الأطفال الذين يركضون بقبعاتهم الصوفية، وأنوفهم المُحمرّة، ومعاطفهم السميكة هنا وهناك.

كلُّ شيءٍ من حولي يُوحي بأنني على متنِ رحلةٍ قصيرةٍ إلى الجنة.

الألوان البنفسجية الوردية والزرقاء المتناوبة التي تسطع من دولاب الأحلام. . . بوالين الهيليوم والتي خُيّل إليَّ لوهلة أنني قد أطير إن أمسكتها . . . دببةُ الباندا المُتحركة تلاطفُ الأطفال والتي وددتُ لو تمسحُ على شعري أنا أيضًا . . . الفناجينُ الدوارة الكبيرة التي عندما جلسنا داخلها شعرتُ أنني سأسيل حقًا كمشروبٍ دافئ. . . الأراجيح التي أحسستُ وأنا على متنها أنني أتماهى مع الأفق وأمتزج بالهواء . . . . الأحصنة المتقافزة والتي نسيتُها تمامًا لحظة وقَعَ نظري على مهرٍ حقيقي صغير (بوني)، كان لطيفًا ومُحببًا كأنّه خرجَ الآن من أسطورة بذيلهِ الأشقر الطويل، وغرَّته التي تُغطّي عينه اليُسرى وحجمهُ الذي لا يتجاوز حجم خروفٍ كبير.

تناولَ قطع السكر من يدي ونظر إليَّ بعينه اليمنى ثم هزَّ رأسه فتحرَّكَتْ خصله الشقراء بدلال، وكأَنَّهُ يدرك كم هو جميل.

صَهَلَ عندما ودعته كأنُّه يقول لي عودي قريبًا وأحضري معكِ المزيدَ من السُكَّر.

وعندما وقفنا أمام بائعِ غزل البنات رغبتُ بالعودة إليه مُحملةً بغيمةٍ سُكريةٍ ملونةٍ كبيرة، لكنكَ حملتَ غيمتي وغيمتكَ وتوجهتَ بي إلى دولاب الأحلام، ركبنا في مقصورة زرقاء بدأتْ ترتفع وترتفع.

عندما اقتربنا من الذروة خلعتَ معطفكَ ووضعتَهُ على كتفي، وكأنَّ جاذبية الكون أصبحتْ مائلة بحيث رمَتني على كتفكَ.

لامستَني بوجنتك الباردة، وخَرَجَتْ شمسٌ من بين شفتيكَ لتسيلَ حارَّةً في أُذني .... (أحبكِ)...

لم أجرؤ على النظر في عينيكَ، لم أرَ حينها إلا الأيائلَ على كنزتكَ الصوفية البيضاء.

خُيِّل إليَّ أنها تجري لتأخذني على مزلجتها إلى مجرّة عشق حيث الأشجار المزينة والأجراس الرنانة والهدايا المغلفة بغلافٍ أبيضٍ كالغيم . . . يثلجُ بكَ . . .

هَبَطتْ مقصورتنا من جديد، لكننا بقينا مُحلَّقين.

نزعتَ قفازي الصوفيّ وجعلتني أرتدي أصابعكَ كقفازين، وتوجهتَ بي من جديد إلى الصندوق الزجاجي الذي تنامُ فيه الدمى.

كل دميةٍ تنتظر أن يُوقظها مالكٌ على موعدٍ معها، وأنا كنتُ أصرُّ أنني على موعدٍ مع الأرنبِ الورديّ الكبير.

كلما اقتربتَ من الإمساكِ به، كنتُ أُصفّق لكَ فتفقدُ تركيزكَ، ويقع من جديد أو تخطئ لتصطاد دميةً أخرى، لنعودَ أدراجنا وأنتَ مُحملٌ بالعديد من القططِ والدببةِ المحشوَّة، وأنا أحملُ أرنبي الورديّ الكبير.

نظرتُ إلى الأرنبِ المستلقي على سريري وأعدتُ الورقةَ إلى الرواية ثم أعددتُ كوبًا من القهوة.

أتَعلَمْ!

لم أستسِغ هذا المشروب يومًا، لكنني كنتُ بحاجة إلى شيءٍ أصبُّ عليه وفيه عاطفتي.

ليست القهوة أو النسكافيه أو الشاي أو أيَّ مشروب آخر هو الذي يطرقُ وترَ اللذةِ داخلي.

الجميع يعتقدون أنهم مغرمونَ بالقهوة لكنهم ليسوا كذلك.

هم يمارسون طفولتهم بطريقةٍ بالغة لا أكثر، يستحضرون تلك المشاعرَ الحميميةَ التي رافَقتْهُم قبل عشرين أو أربعين أو خمسين عامًا، وهم جالسون في (بيت بيوت) بعد أن جمَعوا كل وسائدِ المنزل ليبنوا منزلَهم الخاص، ممسكين بفناجين بلاستيكية يرتشفون منها الهواء وفي أفضل الأحوال الماء، ويذوّبون فيه أحلامهم بأن يصبحوا رجالًا ونساء.

وبعد أن كبروا وتحققَ حلمهم الهوائي الفارغ، ها هم يمسكون اليوم الفناجين مرّةً أُخرى ليست فارغة، إنما مملوءةٌ بمشروبٍ دافئ يُعيدهم إلى طُفولتهم الضائعة بين كومةٍ من الوسائد، يرتشفون دفء الطفولةِ من الفناجين.

السرُّ في الفناجين ذاتها، فهي وُجدتْ لتنظِّم مشاعرنا وأحلامنا، فنحن نستطيع التعامل معها بحميميةٍ أمام الجميع، أن نُقرّبها من شفاهنا ونداعبها برؤوسِ أصابعنا دون أن نثيرَ شُكوك الآخرين بأننا نُفرّغُ عواطفنا من خلالها، لا نملأها بزفراتنا فحسب إنما بأحلامٍ لم تتحقق ورغبنا بتحقيقها يومًا.

حتى اختلافُ الفناجين بألوانها وأشكالها ليسَ عن عبث، فكلٌّ شخصٍ يختار فنجانًا مشابهًا لحالته النفسية.

قد يختارُ فنجانًا على شكل قطة رغبةً منه في أن يداعبه أحد ويمسح على شعره ويجعله قطًا مدللًا.

قد يختار فنجانًا رُسِمَتْ عليه باقاتٌ من الورود لأنَّ لديهِ رغبةً مُلحةً في أن يهديهِ أحد ما وردة.

قد يختار فنجانًا أسودًا لأنه يرغب بعودة الليل بسرعة، كي يغرق في أحلامه ليرسم نجومه عليها على مهل.

وقد يكون الفنجان ساحرًا لدرجةٍ هو الذي يختارنا، لا نعلم السبب الحقيقي لتعلُّقنا به، وقد يكون انعكاسًا لامرأةٍ أو لرجلٍ رغبنا بالارتباط به.

أليس هنالك فنجانٌ يذكرنا بشخصٍ معين!

وهنالك فنجانٌ أيضًا يذكرنا بذواتنا، نقضي معه وقتًا أطول من باقي الفناجين، نحتضنه رغبةً منّا باحتضان أنفسنا . . . .

أنا عشتُ كل القصص مع فناجيني، سواء تلك التي اختارتني أو تلك التي اخترتُها.

مغرمةٌ أنا بها، أُحبّها . . . .

أحبُّ أن أغمرها بين يديَّ، ليس رغبةً بالمشروبِ الذي تحتويه وإنّما رغبة مني بعناقها وتقبيلها كي لا تكون مهجورةً منسيَّة.

أشفقُ على تلك الفناجينِ التي كُسِرَت حافتها أو أذنها، أشعرُ بألمها وحرقتها وهي مركونةٌ في زاويةٍ بعيدةٍ عن الأيدي، وهي تسمع صوت الملاعق تغازلُ فناجينًا ملونة زاهية وتتخيَّل ملمس السكر وهو يذوب داخلها.

أراها تُصلّي في عتمتها كي تنمو لها أُذنٌ جديدة وتلتئم جروح حوافها، لتستطيع أن تقدّم السعادة لإنسانٍ دون أن تطلب منه سوى أن يحضنها ويُقرّبها من شفتيه.

في فنجانٍ على شكلِ بومةٍ صغيرةٍ زرقاء سكبتُ قهوتي. . . .

أنتَ من أعطاني هذا الفنجان عندما أبديتُ إعجابي به.

غسلتَهُ وجففتَهُ ثم وضعتَه في حقيبة يدي بعد اعتذرتَ مني أنَّ لا طبق له، وأنا أكثر ما قد أعجبني به أنَّه بلا طَبَق.

ما من شيء قادرٌ على أن يُقيّد حركته أو أن يمنعهُ من تركِ بصمتِه على منضدة.

كان بنظري فنجانًا مُتمردًا ثائرًا، وعلى الرغمِ من أنَّ لديهِ جناحين صغيرين على جانبيه إلا أنَّه كان بلا أُذن.

لا أدري إنْ فَقَدَ أذنه يومًا أو أنَّه كان هكذا دومًا بلا أُذن، رغم أنه ما من ندبةٍ توحي بأنه قد فَقَدَ جزءًا منه، لكن حتى لو كان كذلك لا أظنهُ من النوع الذي يبكي في عتمته ليصبح كاملًا، فهو بنواقصهِ هذه كامل، وليستْ كلُّ عينٍ قد ترى كَمالَه.

كنتُ أخجلُ من نقصهِ المكتملِ الفريد، كنتُ أخجلُ أن أدعو أمامه للفناجين المكسورةِ بالشفاء بل كنت أخجلُ أن أدعو لنفسي أمامه بالشفاء.

لم يكُن يومًا فنجانًا يستحي بنفسه أو يُغلق على ذاتهِ الأبواب، بل كان واثقًا يجلسُ على المِشبك يراقبني بعينيه الواسعتين الحكيمتين، لينهرني في لحظاتِ ضعفي، ويُحفزّني لأشرب قُوتي منه، قُوتي وليس قهوتي.

يُحفزّني لأصحو منكَ . . .

هذا الفنجان كان وفيًا، وعلمني كيف أروّض الأشياء لتكون وفيةً لي، لأمتلكَ أشياءكَ الخاصة وكأنها غنائم حُبٍّ لم يكتمل.

علَمني كيف أتعاملُ مع القلائد والكُتب والأثواب وزجاجاتِ العِطر التي أهديتني إياها يومًا.

على أُذنه وطَبقِه الذين لم يتكوَّنا تعلمت . . . . تعلمتُ كيف لا أبقى حبيسةً في زجاجات العطر.

ليست كل فتاةٍ تملك فنجانًا سحريًا كفنجاني يُعلمها كيف لا تبقَ حبيسة الرائحة، فنجانًا حكيمًا يمنعها من كسر العُلب الزجاجية على

طريقةِ المراهقاتِ العصبيات، فتبقى رائحة ذكورهنّ تُطاردهنّ إلى ما لانهاية.

علمني فنجاني ألَّا أُوفِّر قطراتِ العطر للقاءاتٍ لنْ تتُم، وألَّا أخرج إلى الشرفة وأرميها من علوٍّ شاهقٍ مجبرةً إياها على الانتحار، لأنَّها ستبقى روح الروائح تطاردني إلى الأبد.

علمني ألا أنتظر رجلًا يُخرجني من عُلبِ العطر القديمة، أن أرشَّ نفسي بنفسي خارجها، كي تصبح هي حبيسةً في جلدي لا أن أكون حبيسةً خلف جدرانها، أتلَّمس الوجه الداخلي لها على الطرف المواجه للعالم بحيث أستطيع رؤيته بوضوح دون أن أكون قادرة على التفاعل معه.

علمني أن أختالَ أمام المرآة بفستانٍ أهديتَني إياه.

كيف أجعلُكَ مُلاصقًا لجسدي دون أن تمتلكَ القدرة على اقتحامي.

قمتُ بإخراج الفستان من خزانتي، كنتُ بحاجة لأن أرتديه في هذه اللحظة لأثبتَ لنفسي ولفنجاني أنني عاريةٌ منكَ حتى لو ارتديتُ أشياءكَ.

فستانٌ أسود بأكمامٍ من الدانتيل، لامستَ أنت أكمامَه وصدره حينما ابتعتَه لي قبل أن أرتديه، ولامستَ روحي يومًا لحظة ارتدائه، واليوم تقف على حافة قبّتِه بعد أن لَفَظَكَ قلبي خارجه.

فخامةُ اللون الأسود تكمنُ بحصانتِه ضدّ أن تَعلَق به ألوانٌ أخرى، حصينٌ هذا اللون ضدّ الألوان لكنه ليس حصينٌ ضدَّ الروائح، فما زلتُ حتى اللحظة أشمُ رائحة كعك العيد ملتصقةٌ بثنياته.

اشتريتَه لي ذات عيد، بعد أن أخبرتكَ أنني أمقتُ الأعياد.

أمقتُها لأنها تقتحمُ خصوصيتي لثلاثة أو أربعة أيام حيث يجب أن أكون مُتاحةً للجميع دون مواعيدَ مسبقة، وأنّه عليَّ أن ألبس طبقاتٍ إضافيةٍ من السعادة كي لا ألطخ أثواب الآخرين بحزني أو بمزاجيتي.

كنتُ لا أخرج من الأعياد إلا بمزيدٍ من الوحدة وأنفاسٍ مُتقطعة تفوحُ منها رائحةُ القهوة من الزياراتِ المتتالية، وأصابع متورمة محشورة بحذاء ذو كعبٍ عالٍ، وأرطالٍ إضافية لم أحصل عليها برغبتي بل برغبةِ نساء العائلة اللواتي يتنافسنَ على لقب (سيدة الكعك) ويُرغمنَ الجميع أن يكونوا جزءًا من لجنة التحكيم.

كنتُ قد قررتُ ذلك العيد أن أصطنع المرض لأبقى في ثيابِ منامتي وكي لا أكسب وزنًا إضافيًا أقضي شهرًا كاملًا في التخلُّص منه، وكي أرحمَ أصابعي من لعنةِ الأحذية المُخصصة للعيد .

لم أُحب هذه الأحذية يومًا رغم أنها تعطي الجسد انسيابية خاصة ورشاقةً مضاعفة دون قضاء أي جهد في النادي الرياضي، لكنني لم أجد متعةً في رؤية رؤوس الجميع من الأعلى، وأن أؤلم رقاب الآخرين وهم يرفعون رؤوسهم للنظر إليَّ.

لم أجد متعةً في جعلِ أصابعي كعشرةِ مُسوخٍ صغيرةٍ غريبة الشكل واللون بدون هدفٍ سوى أن أبدو أطول!

كان عيدنا الأول معًا ولم تنجح حججي الكاذبة بإبعادكَ، بل أتيتَ لي بهديةٍ مُغريةٍ كي تقنعني أن الأعيادَ مميزةٌ بحضورِ من نُحب.

بعلبةٍ مُخملية كبيرةٍ حمراء اللون اقتحمتَ غرفتي، ومن حُسنِ حظي أنّ أمي اشترت لي ثياب منامةٍ جديدة ارتديتُها ليلة العيد.

وضعتَ العلبة على سريري وقُلتَ لي (أمامكِ عشرُ دقائق كي تكوني مستعدة).

كنتُ بحاجةٍ إلى ربع ساعة على الأقل لأتأكد أنني لست أحلم، فهذه المرة الأولى التي أحصل فيها على هديةٍ ليست موضوعة في كيسٍ عشوائي وليست مُغلفة بورق هدايا تقليدي بل مُنتقاةٌ من أجلي بعناية.

ليسَتْ على مقاس جسدي فحسب، بل على مقاس حلمي أيضًا.

كان الفستان نائمًا بين نثراتٍ من الورد الجوري، حينها أدركتُ أنَّ الهدية ليست بقيمتها أو نوعيتَها فقط، بل بالطريقة التي تُقدم بها . . . . بالعطر الذي تُعطَّر به، وبالعلبة التي تحتويها وبمفرش الهدية داخل العلبة.

فكيف إن كان وردًا ؟ !

أرتديه الآن وأتجولُ في غرفتي، فقد تعلمتُ أن أتنقَّل بحذرٍ في غرفةٍ مفخخةٍ بالذكريات دون أن يطأ قلبي لُغمًا عشقيًا ينسفه أو يُرديه مبتورَ الإرادة، ليبحثَ عنكَ في الأروقة الإلكترونية مشوهًا وأعرجًا، متكئًا على عُكاز الشوق . . . . يُراقب آخر ظهورٍ لكَ وينزفُ عندما يراكَ ((متصل الآن_On line)) .

محظوظون أولئك العشاق الذين قد وُلدوا قبل مئةِ عامٍ من اليوم، فقد كانت تنتهي علاقاتهم برسالةٍ ورقية يمزقونها أو يحرقونها في موقدةٍ شتوية، ليصبح الحبيب الغائب مجرد رمادٍ انتثر ومضى.

لا يستطيعون تطقُّسَ أخباره إلا بصعوبةٍ بالغة حتى إنْ كان يقطن في المدينة ذاتها .

وأقصى ما قد كانت تصل إليه عاشقة فضولية بائسة رقم هاتف حبيبها السابق، لتسمع ثلاث حروف منه تتكرر ثلاث أو أربع مرات على أفضل تقدير (آلو. . . . آلو. . . . آلو. . .) ليغلق بعدها السماعة ويجعلها حبيسة الهاتف بتنهداتها ودموعها الصامتة، غير قادرة على التكهُّن بحالته النفسية، إن كان سعيدًا أو حزينًا .

إنْ استطاع أن يجتاز امتحانه النهائي بنجاحٍ أمْ لَمْ يستطع .

إنْ وجدَ عملًا أمْ لم يجد بعد .

فتتحول خيبتها غضبًا لتُحطم الهاتف وتقصَّ أسلاكه وتصبَّ لعناتها على جراهام بل* .

* جراهام بل: مخترع الهاتف(١٨٧٦م).

لا تدري تلك العاشقةُ الفضولية الغبية كم هي محظوظة مقارنة بعشاق اليوم الذين يقودهم شوقهم وفضولهم إلى مراقبة بعضهم بعضاً يَمضون في سُبل الحياة.

يتناولون الطعام مع أصدقائهم، ويسافرون من بلد إلى آخر، يشربون قهوتهم أمام النوافذ الشتوية ويقرأون روايةً رومانسية، ويشعرون بالسعادة أو المحبة أو الشوق مع أشخاص جُدد، ليتوَّهم العاشق المُتعقِب أن أحد هؤلاء الأشخاص قد سلبَهُ مكانه، فيبدأ بالبحث عن هوياتهم الغامضة التي قد تكون مُستترة خلف أسماء وهمية، ودون صور شخصية.

هذا الغموض المُربِك يحوّله دون سابق إنذار إلى شارلوك هولمز، ليلاحق هذه الشخصيات الرقمية ويتكهن أيُّها قد تكون الأقرب إلى قلب من أحبّ يومًا.

يُحصي عدد (لايكاتهم)، ويراقب تعليقاتهم، فيقع أسيرًا في هذه المصيدة الإلكترونية الزرقاء.

أدركتُ أنَّ التوقفَ عن هذه التحريات هو الذي سيُحررني من هذه المصيدة، وسيكون الخطوة الأولى في عملية (الحظر) القلبي.

كانت الكتابة هي القشّة التي انتشلتني من مصيدتكَ، فحوَّلتُكَ إلى شخصيةٍ ورقية يجري الحبر دافئًا وطازجًا في شرايينها لأجعل منك طُعْمًا لذيذاً للحروف.

في البداية لم أستطع أن أتجاوز ضعفي وكنتُ أنقله إليكَ...

لأخلق شخصيات مهزوزة ويائسة ألبِسُها ثيابكَ ولونَ عينيكَ وأرشُّ عليها عطركَ وأضعُ بين أصابعها سجائركَ وأُرغمها على التدخين.

أُطعِمها طعامًا غير صحي، وأجعلها أكثر نحولًا وشحوبًا وأقصر قامة.

أُغلِق كل القلوبَ النسائية في وجهها، أُجرّدها من أحلامها، وأعرّيها من غرورها لتنتهي منتحرةً أو على أبواب الجنون.

لكنني مع الوقت اكتشفتُ أن اللذة تكمن في جعلكَ ببنية عضلية أقوى، وبصوتٍ أكثرَ رجولة، وبِرِئةٍ أنظف وبأناقةٍ مضاعفة، كنتُ أجعلكَ أكثر لباقة ورومنسية وموهبة.

أخلق منكَ . . . . شخصية أفضل منكَ . . . .

شخصيةً لن تستطيع أنتَ الوصول يومًا إلى ما قد تصله، كنتُ أقوم لكَ بعمليات تجميليةٍ على الورق.

حتى أنني حفرتُ غمازةً على خدك، وجعلتُ منكبيكَ أعرض.

منحتُكَ أسلوبًا مميزًا في العناق والتقبيل، لأستمتع بكَ حتى أقصى درجة.

لأحسَّ بملمس بصماتكَ على خصري، وأعتصرُ شفاهي لأُحرِّض ذاكرتها كي تستعيد قُبَلًا لم تُقبلني إيّاها يومًا .

منحتُكَ أصابعَ أكثر ليونة قادرة على العزف والرسم لتحبني حرفًا ولونًا ولحنًا . . . . لأحبك من جديد، فأنا أؤمن أن الكره يجعلنا مجوفين من الداخل.

إنّه يأكلنا على غفلةٍ منا . . .

لم أُرِدْ لكرهكَ أن يأكلني، بل أردتُ أن أتغدى بِحُبّك قبل أن يتعشى كرهكَ بي.

لذلك خلقتُ نسخةً أفضل منكَ لتحبني بآثامي وأخطائي، لتحبني وأنا في أسوأ حالاتي . . . كي أغفر لكَ وأرحم ذاتي.

ومن حينها أصبحتُ لا أؤمن بالحب من النظرة الأولى، بل أؤمن بالحب من الفقرة الأولى. . . من النص الأول، من الرواية الأولى.

عندما تتعطر الأنثى برائحة الورق، ويستنشق الرجل أستروجينها حتى آخر قطرة، يحملها على صهوةِ فهرسٍ ما، ويُحلِّقُ بها على جناحي كتاب.

وكنتُ أتساءل ماذا لوكان هذا الكون بمجرّاتِه وكواكبه ونجومه وأقماره مجردَ كتاب، وأننا لسنا إلا شخصياتٍ ورقيةٍ داخله؟ ما الذي يثبتُ لي أننا لسنا كذلك حقًا !

ما الذي يثبتُ لي أنني أنا التي قد أحببتُ وأنَّ حبيبي تركني ليُلبي ((نداء الوطن)) ؟

وهل هذا الوطن مصابٌ بانفصام في الشخصية ليُنادي في كل مرة فئة؟ !

كيف يستطيع الوطن أن يسمحَ لاثنين من أبنائه بالنوم على صدره. . .يُشربهما دمًا ويجعل منهما عَدُوين بالرِّضاعة!

توقفتُ عن التفكير عندما رأيتُ قاع فنجاني وقد شكّلتْ بقايا القهوة في جوفه وجهًا عابسًا .

ها هو فنجاني من جديد يُقدّمُ لي إشارةً واضحةً أنني تماديتُ في أفكاري وأنني يجبُ ألا أعود إلى نقطةِ البداية .

أدركتُ أنه عليَّ الخروج من هذا الفراغ المزدَحِم، توجهتُ إلى المطبخ، أذبتُ القليل من الزبدة ونثرتُ حُبيبات الذرة الصفراء فوقها وبدأت أراقب من الغطاء الزجاجي كيف ينفجرُ اللون الأصفر اللامع متحولًا إلى لونٍ أبيض مقرمش .

وكيف أن بعض الحُبيبات تحترقُ لتصبح سوداء داكنة رغم أنها معرّضة لذات الظروف التي تتعرضُ إليها جميع الحُبيبات الأخرى، وعلى الرغم من أن كل الحُبيبات في ظاهرها صفراء لامعة إلا أن الحرارة هي التي ستميّزِ جودتها . . . كالحرب تمامًا .

الفرق أنني سأتخلص من الحُبيبات المتفحّمة أما الحرب فستلوك كل ما في بوتقتها ليختلط الأصفر بالأبيض بالأسود دونما رحمة.

حملتُ وعاءَ (الفوشار) ومررتُ بالصالة أثناء عودتي إلى غرفتي، فوقع نظري على ذلك الصندوق الأسود المتسمر في صدرِ الغرفة.

كيف لصندوقٍ بهذا الحجم أن يحتوي آلاف الجثث وألا ينزف بليتراتٍ من دمائهم!

كيف له أن يحمل مئات المراكب المطاطية دون أن تسيلَ منه موجات بحرٍ مُحملّةً بجثثهم الهامدة!

كيف له أن يحتوي ملايين ربطات العنق الأنيقة دون أن يُحكِمَ على عُنقه بربطة عُنق احتجاجًا على كذباتهم ليخنق نفسه بها وينطفئ إلى الأبد!

كنتُ قد تخلصتُ من التلفاز في غرفتي قبل وقت سابق، ليبقى هذا (بيت الموت) الوحيد في المنزل.

اتخذتُ قراري النهائي بعد أن شاهدتُ تقريرًا عن دخول النساء كعنصرٍ مسلّح في الحرب.

تساءلتُ يومها ....

ما هو شعور الأنثى المسلحة؟

وهل يليقُ بالأنثى أن تحمل سلاحًا غير أنوثتها ؟

ذلك الكتف اللين الذي تُنهكه حقيبة جلدية ملوَّنة، كيف له أن يحمل حقيبة للموت؟

وكيف لخصرٍ معجونٍ بماءِ الجنة ومنحوت لتدورَ في محيطه الحياة أن يصبح مدارًا لرصاصاتٍ تنتظر جسدًا تسلبُه حياته؟

أمِنَ الممكن لبشرةٍ تتحسس من البوليستر والصوف ولا يناسبها إلا الموهير والحرير أن تتحملَّ خشونةَ حزامٍ ناسف؟ !

انتهى التقرير وأنا أضرب كفًا بكف ليعلو صوتي:

رباه. . . . ألم يعُد السِلمُ يليق بأوطاننا !

لم يبقَ إلا أن تصبح العصافير جزءًا من النزاع أيضًا، يبدو أنها نأتْ بنفسها لتصبح خرساء تمامًا بعد أن قطعَتْ حبالها الصوتية أصوات البنادق والقنابل والمتفجرات.

كنتُ سأتابع طريقي إلى غرفتي، لكنني أطفأتُ أنوار الغرفة وجلستُ على الأريكة.

أمسكتُ جهاز التحكم وقلَّبتُ في محطات الأفلام (دون التطرق لغيرها).

كان فيلم التايتنك يُعرض على المحطة الثانية.

لطالما تساءلت ما سرُّ الحب في هذا الفيلم الذي جعل منه أيقونة للعشق.

إنها (الاستحالة). . . .

نعم الاستحالة هي من يجعل شخصين يُحبّان بعضهما بهذا الزخم وهذه القوة.

وكلما بلغَتْ الاستحالة مرتبةً أعلى كلما أصبح الحب أقوى، ليس حبًا بالشخص ذاته وإنما حبًا بالحالةِ العشقيةِ المستعصية.

هي حالة من التلذذ بحب الآخر لنا، والتلذذ أيضًا بالعذاب الذي يُكلل هذه العلاقة.

تلذذُ العاشق بأنه ضحيةٌ مع من يحب لمأساةٍ واحدة، بحيث يشعر أنّه يشبه أبطال الروايات والأفلام.

فأبقى قصصُ الحب تلك التي لم تتخطَ حدود الروح، تلك التي لم تبدأ يومًا لكنها لن تنتهي.

تلك التي تصرخُ فيها كل خلاياه (أحبكِ) دون أن تسيلَ هذه الكلمة في أذنِها مرة.

تلك التي تُقبّله فيها آلاف المرات دون أن تترك آثار أحمر شفاهها على شفتيه.

تلك التي يشتري فيها _لها_ أثوابًا لن تلامسَ جسدَها، وتشتري له عطرًا لن يختلط بأنفاسه.

في تلك القصص يتعانقان تحت سماءٍ ماطرةٍ دون أن يبتلّا بقطرة مطرٍ واحدة.

في تلك القصصِ قد لا يمتلكان حتى صورة تجمعهُما سوى تلك التي يتم تَحميضُها ليلًا في دهاليزِ ذاكرةِ مُستقبلٍ لن يُصبح حاضرًا أبدًا.

هذه القصص لم ولا ولن تنتهي ....

لذلك تجد أن الرجل لا يهوى إلا تلك الأنثى التي عاش معها أقصى درجات العذاب ولم يتمكن من الارتباط بها، لتُصبحَ هي الأصل وما يليها من نساء مجرد نُسَخ.

وحتى لو دخل في حالةِ حُبٍّ جديدة سعيدة ومستقرة. . . . حتى لو تزوَّج من حبيبةٍ جديدة وأنجب منها أطفالًا، سيبقى الحب المستعصي عالقًا في ذاكرته.

ولو خَيّرتَهُ أن يترك أطفاله وزوجته ليعود إلى ذلك الحب المازوشي لرغب في العودة دون شك، ليعيش دور الضحية من جديد ليُعذِّب الآخر ويتعذَّب به.

وهذا ما حصل مع (روز) تمامًا، بقي (جاك)عالقًا في ذاكرتها حتى أصبحَتْ عجوزاً لتروي قصتها لأحفادها . . .الذين آباؤهم كانوا أبناءها من ممارستها الحب ليس مع زوجها، إنما مع خيال (جاك).

لا استحالة كاستحالةِ الحب بالموت لذلك تجدنا مولعين بالأموات أكثر من الأحياء.

ولو كان (جاك) من الناجين، لما نال الفيلم هذا الصدى.

لو كان من الناجين لما عشقته روز إلى هذا الحد، بل لرُبما خانها في السنة الأولى لذكرى نجاتهما معًا، لتشعر هي أنَّ هنالك فجوة اجتماعية بينهما قبل أن تشُّمَ رائحة خيانته لها وتتركهُ لتتزوج أميرًا ما من مستواها .

وعلى الرغم من إيماني بذلك إلا أنني أبكي في كل مرة يغيب فيها وجه جاك تحت المياه.

أبكي وحيدةً بحُرقَة وكأنَّ موتَه كان ذريعةً لي لأبكي على ذاتي، أذرفُ دموعي على ذراعِ معطفٍ مُعطرٍ بعطرٍ ذكوريٍّ عميقٍ من ذلك النوع الذي يملأ الرأس بدوارٍ لذيذ دون أن تشعرَ أنَّه عالقٌ في حنجرتك، أمسح بِكُمِهِ دموعي وأواسي به ذاتي، ثم أمدُّ يدي إلى جيبه فأجدُ قطعة شوكولا .

الشوكولا هي المُخدّرِ المشروع الوحيد الذي نستطيعُ تناوله عند تشييع أحلامنا .

أفتح عيناي وأستشعر بقايا نكهة الشوكولا لأجد نفسي في سريري وعلى وسادتي مغطاة بغطاءٍ خريفي ناعم مُعطرٌ بذاتِ العطر .

أحاول استجماع ذكريات الليلة الماضية. . . .

رباه. . . !

هل يستطيع عطرٌ أن يحمل أنثى إلى سريرها !

نحنا والقمر جيران

قد تتساءل مَنْ أنا ؟

بإمكانكَ مناداتي بما شِئت .

هذا طبعًا إن ابتكرتَ طريقةً لمناداة الأشخاص على الورق .

قد تناديني (أبي، أخي، خالي . . .) .

وإن لم يكن هنالكَ معرفة بيننا قد تعتقد أنني صديقكَ، وقد أتشابه معكَ في الأفكار لدرجةٍ قد تعتقد فيها أنني أنت، وقد لا يحصل هذا، واختلافي عنكَ ليس دعوة كراهية، فوجودي لا يعني فنائكَ ووجودكَ لا يعني فنائي .

لا أجدُ من داعٍ للإفصاح عن اسمي .

لكن . . .

اسمي كرم.

ربما السبب الوحيد الذي يدعوني للتصريح باسمي هو أن جميع من يكتبون مذكراتهم لا يُدلون بأسمائهم، وكأنَّ الاسم تُهمة!

أو ربما هو كذلك حقًا.

عندما تسمع صوتًا غريبًا يسألكَ **(هل أنتَ فلان؟)**

ستستديرُ بشكلٍ تلقائي، لكن شيئًا ما داخلكَ سيلعنكَ لأنكَ استدرتَ.

هذا الشيء كان يرغب أن يقول لا، واستدارتكَ أفشلَتْ خُطته.

(هل أنتَ فلان؟)

صيغةُ السؤال لا تُوحي إلا أنكَ متهمٌ بأمرٍ ما.

جرِّب السؤال مرة أخرى...

أجِبْ عنه...

(أنا فلان) .

رددهُ أكثر وأكثر .

أنا . . . .

ألا يبدو الاسمُ مألوفًا فقط عندما ينادينا به الآخرون !

لكن عندما نستخدمهُ مع أنفسنا نشعر بمدى غرابته !

ربما لأنكَ اعتدتَ أنْ تتحدّث بصيغة المتكلم، ولأُصدقكَ القول قد تصل إلى مرحلةٍ ما لتتحدث عن نفسكَ بصيغةِ الغائب، لكن استخدامكَ لاسمكَ بينكَ وبين نفسكَ سيوحي لكَ أنكَ شخصٌ آخر فحسب .

ماذا عن الأسماء المستعارة، كالتي نستخدمها في وسائل التواصل الاجتماعي مثلًا .

مع الوقت ستصبح كالتهمة أيضًا، لكنَّ عقوبتها لن تتمثل يومًا بالأعمال الشاقة المؤبدة.

في العالم الافتراضي هناك ميزةٌ غريبة...

تستطيعُ أن تهربَ من تُهمتك بحملِ تهمة أُخرى!

ولأنَّ تُهمةٌ واحدة لا تكفيني سأحمل تهمتين...كرم واللامنتمي.

(اللامنتمي) هو اللقب الذي تناديني به ورد، رغم أنني أعلم أنها تستخدمه ضدّي كتهمة، إلا أنني أجده المحامي الوحيد الذي يُبرئني من تهم غيري.

ألا تكون منتميًا يعني أنك لستَ مضطرًا لتبرير أخطاء من تنتمي إليهم أو تبييضها أو تزيينها.

إن الإنسان ابتكر مفهوم الانتماء ليستطيع أن يُنفّس عن غضبه في الآخرين، ليشعر أنه أعلى شأنًا منهم وأنه مُتفوقٌ عليهم بشيء ما.

الفخرُ بالانتماء أمرٌ بسيط، فهو لا يحتاج إلى بذل جهدٍ كبير، بل هو امتيازٌ تحصل عليه بمجرّدِ ولادتكَ في حيّز جغرافي محدد ويُغذّيه فيكَ من يشاركونكَ هذا الحيّز.

بدءًا من القومية، مرورا بالطائفية، انتهاءً بالجنس.

كل ما تكتسبه مُجبَرًا في هذه الحياة يتمُّ تحويله بشكل أو بآخر إلى انتماء.

ربما كمحاولةٍ أخيرة لإقناع ذاتكَ بأنك راضٍ كل الرضا عن شيء لم يستشركَ أحد بأن يكون ملازمًا لكَ طيلة حياتكَ.

الانتماء...

هذا الأمر قد طورناه عن الإنسان البدائي الذي أدركَ أنَّ وجوده في مجموعة ما سيؤمّن له الحماية فابتكر الجماعة...القبيلة...العشيرة.

كانت وسيلته لدرء هجوم غادرٍ عليه، أو للحصول على فرائسَ وطرائد أكثر.

تشير المصادر إلى أنَّ إنسان نياندرتال* والهوموسابينز** قد تزامنا في مرحلةٍ ما.

لكن ما يثيرُ العجب حقًا أننا نحن اليوم نحمل مورثات نياندرتالية***!

ما الذي قد حصل آنذاك؟

لا يمكنني إلا أن أتخيَّل النياندرتال المسكين بشعره الكثيف المبعثر وثيابه الرّثة، تعلو قسماتَه ابتسامةُ نصرٍ عريضة وهو يقوم بإيقاد النار

---

* النياندرتال: أحد أسلاف الإنسان الذي ظهر قبل ١٦٠٠٠٠ سنة في أوروبا
المصدر: العالم من البدايات حتى ٤٠٠٠ ق.م (إيان تيتراسول)

** الهوموسابينز: الإنسان العاقل (الحكيم) وقد ظهر لأول مرة في أثيوبيا قبل ٩٠٠٠٠سنة، ووصل لأول مرة إلى أوروبا قبل ٣٤٠٠٠ سنة (نفس المصدر السابق)

*** لقد ساهم النياندرتال في الحوض الجيني البشري الحديث وما لبث أن اختفى تماما لصالح الهوموسابينز.
تميز النياندرتال بأدمغة كبيرة، أكبر حتى من التي للبشر الحديثين _وكانوا صانعي أدوات متميزين، وصائدين ماهرين.
المصدر: لماذا النشوء والتطور حقيقة لجيري كوين.

ليطهو صيده الثمين الذي غاب عدة أيام خارج كهفه ليتمكن من اصطياده.

أما زوجته تستعرضُ الجلد الخام أمام جارتها في الكهف المقابل وتتشاور معها (بكل ما أوتِيَتْ من حركاتٍ تعبيرية) حول الطريقة المثلى لصُنع أحذيةٍ أكثر متانةٍ لزوجها الذي يقضي أيامًا وليالٍ مترصدًا لفرائسه التي يجرُها خلفه حافيَ القدمين.

وطبعا لتدعوها إلى الوليمة المنتظرة...

الأطفال يستغفلون انشغال ذويهم ويعبثون بالأسلحة المخصصة لصيد الحيوانات.

طبعًا لا يعبثون بها لأنها مُسلية بل لأنه قد تم تحذيرهم من الاقتراب منها فحسب!

وعلى مسافةٍ ليست ببعيدة يتنبَّه أحد الهوموسابينز أثناء قيامه بجولته المعتادة إلى رائحةٍ شهية. . .يتسلقُ شجرة بسهولة، فيرى دخانَ نارٍ قريبة.

وهووووب. . . . يقفزُ بسرعة ليُخبر أقرانه.

وطبعًا لأن كل هذا الكوكب ما كان ليكفي الهوموسابينز يومًا، سيتم إحاطة منطقة النياندرتال من كل جانب والإغارة عليهم.

في تلك الليلة مات كل ذكور النياندرتال جائعين، وسُبيَت نساؤهم.

لقد اختفى النياندرتال أو بالأحرى ما زالَ موجودًا لكن بصورةٍ خفية. . . . لقد تمَّ امتصاصهُ جينيًا !

والآن ماذا ؟ الآن نحن.

نحن نحملُ جزءًا منهم داخلنا دون أن نشعرَ حتى !

أي أنَّنا ومنذُ الأزل نتاجٌ للمتناقضات.

الغازي والمَغزي. . .

الصياد والفريسة. . .

ورغم رغبتنا في الانتساب إلى الأقوى، إلا أن الفريسة تَئِن داخلنا .

نحن حيارى. . . .

كيف لا ونحنُ نتاجُ الاثنين معًا .

لكننا نتجاهل ذلك بكلِّ وقاحة، ونُخمد الأَنَّاتَ بصراخ عالٍ، بزمجرةٍ عاتية. . . تُدعى الانتماء .

بمجردِ تخيُّل أنكَ الجنين الناتج عن اغتصابِ غازٍ منتصرٍ لامرأة مَسبيةٍ من القبيلة الخاسرة. . .ما الذي ستشعر به؟ !

لا داعي للتخيّل، فهذا قد حصل حقًا .

ليس بالضرورة أن يحصل أمام عينيكَ ليكون حقيقيًا .

لقد حصل في كل الحقبات التاريخية لأجيال اندثرَتْ نتجنا نحن عنها، لكن لم يتبقَ لنا منها إلا رواسبَ ذاكرية.

رواسب دُفنَت في أعماقنا اللاواعية. . .أننا الصياد والفريسة معًا، وعلينا أن نحتمي من (أنفسنا) بانتمائنا لكيانٍ أقوى.

ما الذي يحدد من هو الكيان الأقوى؟ وهل هو ثابت؟

ليس ثابتًا ويحددُه فقط تبعثرُ الجغرافي. . .على الخط الزمني.

هذا هو الانتماء.

لفتراتٍ طويلة. . . لم يُعتبر مصطلح (لا منتمي) إلا دمغةً تشير إلى العبثية، توحي بمراهقٍ ذابل العينين، رخو الذراعين غير مكترث لشيء.

رغم أن شقَّ جلدة الانتماء هو محاولة فعلية للتعرف على الذات الحقيقية.

هو سقوطٌ للبداوة. . .للقبلية. . .

هو وقوفٌ أمام المرآة بدون أقنعة، ووقفٌ للصراع القائم داخلنا بين الصيَّاد والفريسة.

هو إدراكٌ واعٍ بلعبة الاحتمالات.

أن تدرك أَنَّه كان يمكن أن تكون بلونِ عينين أزرق أو أخضر أو أسود.

أنه كان يمكن أن تكون مسيحيًا أو مسلمًا أو عابدًا للشياطين الزرق.

أنه كان يمكن أن تكون ببشرةٍ بيضاء أو سمراء أو حتى صفراء.

أنه كان يمكن أن تنتمي إلى قبيلة قريش أو قبيلةٍ في جنوب أفريقيا.

أنه كان من المحتمل أن تكون موزمبيقيًا أو اسبانيًا أو يابانيًا.

إنَّ الفخر بالانتماء يجعلك تعتقد أنكَ أكبر من حقيقتكَ فحسب.

إنَّ مجرَّد اعتقادنا أننا مُهمين ومُكتملين منذ الولادة يجعل وجودنا بلا هدفٍ يُذكَر.

إلا إنْ كان الهدف من وجودنا أن نُولد عُظمَاء ثم ننتهي. . . . كـ(لا) شيء، ولا أظنُّ أن العملية عكسيةٌ بهذه الصورة.

لماذا أكتب هذه الملاحظات أو اليوميات أو الأفكار سمِّها ما شِئت. . .

لأنني أريدها أن تقع بين يدي ابني أو ابنتي أو حبيبتي أو زوجتي في مستقبلٍ ما.

هنالك أشياءٌ نرغب بأن يعرفها عنا الآخرون دون أن نخبرهم بها بشكل مباشر، لكننا عادةً ولسببٍ مجهول نؤجلها إلى ما بعد موتنا.

الزمان: زمانٌ يشبه الزمان الذي أنتَ فيه الآن.

نعم. . . . *فالآن* مطاطٌ أكثر مما تعتقد.

المكان: على طاولتي الخشبية أمام النافذة التي تبعد ستةَ أمتار عن نافذةِ ورد .

لِمَ ذكرتُ اسم ورد تحديدًا مرتين حتى الآن؟

إنَّ ذلك قد يثيرُ تساؤلَ من يقرأ وقليلًا من الغيرة.

لأنها كانت الأقرب لي دومًا، وباستثناء ستِّ سنواتٍ قضتها ورد بعيدةً جسديًا، كانت أطول مسافةٍ فصلتني عنها منذُ الطفولة هي نافذتين بينهما حبلٌ وسلةُ قشٍ استخدمناها كبريدٍ سريع لنقل الوظائف المدرسية أو لتبادل الشوكولا أو لطبخ مؤامرةٍ ما .

كانت ورد الطفلة الجميلة ذات الضفائر الطويلة التي تضعُ قبعاتٍ ملونة ونظاراتٍ شمسيةٍ وترتدي تنانير مزركشةٍ صيفًا، ومعاطفَ من جلدِ النمر، وأحذيةٍ بساقٍ عالية شتاءً .

كنتُ أنا على عكس جميع صبيان الحي، أستيقظ باكرًا مُنتظرًا على نافذتي كي تُلوّح لي لنذهب معًا إلى المدرسة.

أساعدها في جرِّ حقيبتها الوردية، وأمسكُ بيدها كي تقطع الشارع، أقاسمها شطائري، وأزرع معها العدس على القطن المبلل.

أحافظ على ممحاتها المعطرة التي كانت بشكل حبةِ فراولة من الضياع، وأحمي مسطرتها المملوءة بأسماكٍ تطفو في سائلٍ برَّاقٍ من الكَسْر.

أمسحُ السبورة عوضاً عنها كي لا تتسخ ثيابها ببقايا الطبشور، وأُصحّح لها وظيفتها المدرسية قبل أن تراها المعلمة.

كنتُ أحاول أن أحتفظَ بها خلالَ الفُرصة المدرسية، أطمئن أنها مُحصَّنة ضدَّ البرد وأضعُ لها قبعةَ الفرو لتحيطَ بوجهها وينطفئ أنفها المُحمرّ.

أشتري لها البسكويت والسكاكر كي لا تضطر أن تقف أمام نافذة العم أحمد بين عشراتِ الصبيةِ المتدافعين للحصول على أكياس البطاطا المملحة أو (القباقيب) الحلوة الطعم.

كنتُ أُفضِّل تجاهل دعوتهم للعب بكرة القدم كي أبقى معها لنتسابق من منا قد يصنع غيمةً أكبر ببخاره، أو لنلعب (الغميضة) وأبحث عنها وأتعمَّد عدم إيجادها لأرسم ابتسامة نصرٍ على شفاهها .

لا أدري ماهية المشاعر التي قد تجعل صبيًا يقف من جهة قدوم السيارات ليجعلَ فتاتَه محميةً على الضفةِ الأُخرى. . .

ويربطُ لها حذائها كي لا تتعثر. . .

ويتشاجر مع صِبيَة الحي لينزف أنفه عدّةَ ساعاتٍ متتالية كي لا يضايقها أحد . . .

إلا أنها كانت قويةً جدًا لتبقى محفورةً في ذاكرتي.

عقيمةٌ تلك الذكريات. . .

التي أمسكُ فيها يدها دون أن ألامسها . . .

التي أشربُ فيها من فنجانها دون أن أتذوَّقَ قطرةً واحدة. . .

التي أرشُّ على جسدي عِطرها دون أن أستطيع استنشاقه. . .

التي نمشي فيها معًا تحتَ المطر دون أن نبتلَّ. . .

التي تُحدثني فيها أحاديثَ طويلة دون أن أسمعَ صوتها . . .

عقيمةٌ تلك الذكريات. . .لكنها عادت منذُ أشهر قليلة لتحبل بكِ يا ورد .

استيقظتُ ذلك النهار على عددٍ من ملاقط الغسيل التي اصطدَمَتْ بالسرير وبخزانةِ الملابس وأخيرًا برأسي.

كانت دعوةً لتعليق الطفولةِ الضائعة على حبالِ ذاكرتنا من جديد .

أعطِني ملقطًا . . .ذلك الملقط الخشبي. . .

لأُعلِّق به شجرةَ التوت والأرجوحة وضحكاتكِ.

لأُعلِّق خُصل شعركِ التي يلاعبها الهواء .

لأُعلِّق البخار على النافذة وإصبعي الصغير يرسم عليها حروفًا مقلوبةً لترينَها بوضوح.

لأُعلِّق غابةَ الزيتون التي كانت يومًا غُصنًا يتيمًا في عينيكِ، ويدكِ الصغيرة وهي تَحُلُّ تمرينًا على السُبورة الخضراء، والموسيقا العارية التي تسيلُ من شفتيكِ.

أعطني المزيد لأُعلِّقَ ذلك الشيء الذي حافظَ على ملامحكِ كما هي ولكن جعل من وجهكِ وجهًا آخر.

أعطني المزيد لأُعلِّق دهشتي وهي فاغرةٌ فاهها وبجانبها مئةُ إشارة تعجب!!!!!

هل سيتسع حبلٌ من ستة أمتارٍ لكل ذلك؟!

للحيطة والحذر سأفرِغ مكانًا...

ما الذكريات التي سأتخلص منها؟

ربما قدميكِ الصغيرتين اللتين تورمتا وأنا أدوسهما في حفل نهاية العام الدراسي لأنني كنتُ عاجزًا عن الرقص.

أظنني مدينٌ لك بحذاءٍ ورقصة.

ما الذي قد أحذفُه أيضًا؟

تلك القصص المرعبة التي كانت أبطالها كائناتٌ مخيفة من نار تتربص بنا، وشفتكِ المقلوبة المرتجفة الخائفة، والأيام الطويلة التي حاولتُ فيها التكفير عن شقاوتي الصبيانية وأنا أخبركِ أنَّه لا وجود لهذه الكائنات، ولو كانت موجودة ستكون لطيفةً خجولةً لدرجة أنها لم تظهر أمامنا ولو مرَّة واحدة.

فرخُ اليمامة الذي سقط من العشّ ونحن نحاول إطعامه، وبكيتِ أيامًا طويلة من أجله ومن أجلنا لأننا أصبحنا مجرمين بنظركِ ولم تكن الجريمة الأخيرة على ما أذكر، فقد انضمَّ للقائمة حلزون ونملتان وسلحفاة.

إنْ كنتِ تعتبرين القتل غير المتعمَّد لحيوانٍ جريمة، فما قولك بالقتل العمد في الحُلم؟

ما قولكِ أنَني كنتُ أقتلُهُ في كلِّ حلم، وعندما أستيقظ. . .

أخطط لقتلهِ من جديد في حلمٍ آخر.

لقد كان يتمثَّلُ لي دومًا على شكلِ أسدٍ صغير. . .

ربما لأنَّه كان يومًا مِلكًا في غابات روحكِ، أو فقط لأن اسمه ليث!

كنتُ أختبئ خلف تلةٍ من الأعشاب الصفراء اليابسة وأترصدُ له.

أقترب منه أكثر وأكثر حتى أصبح قادرًا على سمع وقع قوائمه على العُشب المتكسر تحتها.

وما إن يشعُر بوجودي حتى يبدأ بالجري.

ذلك الإحساس الذي يولّدُه الحلم بأنني أجري من خلفه وبذات الوقت أستطيع رؤيتَهُ من الأعلى. . .من الأمام. . .ومن كل الاتجاهات. . . كان يمنحني قوةً مضاعفة ويشعرني بالسيطرة.

ورغم أنني كنتُ قادرًا على قتله في الهكتار الأول الذي يقطعه داخل رأسي إلا أنني كنتُ أتلذذُ بتركه يهرب إلى مسافات أبعد .

أِصلُ إليه أخيرًا . . .

ولا أرى إلا ضوءًا أبيضًا يرتطمُ بعيني. . . .

لكنني أشعر بيدي تخرقُ جسده بسكين حادة. . .

أسمع صوت تَهتُّك اللحم الطري وتمزّقه. . .

أحسُّ بملمسٍ لزجٍ على يديّ ووجهي، وبطعمٍ مالحٍ في فمي. . .

كلَّ حواسي تعمل بأفضل صورة إلا عينيَّ تبقيان مغمورتان بالضوء الذي يتلاشى بالتدريج فأراه مُعلَّقًا على شجرةٍ من ذيله. . . رأسه متدلٍ وعيناه مفتوحتان.

في نهايةِ كلّ حلم أُمسِك لَبْدَتَهُ وأقصُّها فتتناثر خصلها على الأرض.

أجمعها . . .أرتبها وأشذبها لتكون بطول متناسق.

أشدُّ عليها قبضتي. . .

يتغير المكان. . .

تختفي السهول ذات العشب المصفَّر. . .

تختفي الشجرة . . .ويختفي هو أيضًا . . .

أرى نفسي في مكتبةٍ كبيرة. . .أمسك كتابًا وأضع خصل اللبدة والسكين داخله، ثم أستيقظ على صوت ارتطام الكتاب وأنا أشعر وكأنَّ شيئًا ما مُسِحَ من ذاكرتي دون أن أدرك ماهيته!

الغريب أنّه لم يتلبسني الشعور بالذنب يومًا وكأنَّني قاتلٌ محترف.

أو أنني. . .

أو أنني هوموسابينز أصيل. . .أصيلٌ حتى النخاع!

أو ربما لم أشعر بالذنب لأنه هو من تخطى حدود منطقتي، وأنا كنت أدافع عن نفسي فحسب. . . . عن نفسينا فحسب، لأنني كنتُ متأكدًا أنه لن يسعدكِ.

لكن ماذا كان سيحصل لو أسعدكِ؟!

هل كنت لأرتاح؟ وهل كان ذلك الحلم ليتوقف يومًا؟

لا أدري حقًا!

إحساسي الآن كشخصٍ يتمُّ تعريضُه لجهازِ كشفِ الكذب في إحدى المسابقات التي تكسب فيها مالًا بقدر صِدقكَ.

شخصٌ يتلكأ في الإجابة عن السؤال ليس لأنه كاذب، بل لأنه لا يدري ما هي الإجابة الحقيقية.

يعلم أنه يجب ألا يكذب لأنَّ الجهاز سيَصْفُر ويكشفه، لكن في الوقت ذاته لا يستطيع تحديد الإجابة الصادقة من الكاذبة.

حسنًا....

سأقول (نعم)...وربما سيَصفُر الجهاز.

جاءتْ مُعذبتي . . . . في غيهبِ الغسقِ

أكتبُ لأثرثرَ مع نفسي، عندما لا أجدُ شخصًا يُشبهني لأثرثرَ معه.

لكن المشكلة تكمُن عندما أجدُ نفسي بعد زمنٍ لم تَعُدْ نفسي، بل أصبحَتْ نفسًا أُخرى لا تُشبهُني.

عندها يبدأ جدلٌ عقيم من منّا قد تغيَّرَتْ، فتُطلقُ هي على صدري بضعةَ حروفٍ وتهرب. . .

أنجو منها بأعجوبة!

ثم تعودُ بعد فترةٍ مستسلمةً رافعةً ورقةً بيضاء، وتقنعني أنها ليست هي التي حاولت قتلي إنما أنا التي حاولتُ الانتحار بحروفي!

وككل مرة تخرجُ من الورق بوجهٍ كوجهي وابتسامةٍ كابتسامتي، تمشي بخطىً بطيئة وكأنها تهبط من مدرج طائرة، محملة بالحقائب وتصرخ بي: *هاه. . .ألا تنوينَ مساعدتي؟ !*

_ وهل لديّ خيارٌ آخر ! لا بد أن الحقائب محشوّةٌ بكل الهموم والمشاكل التي صادفتني يومًا .

تعقدُ حاجبيها وتقول: *أنتِ لا تُقدّرين الجهود التي أبذلها أثناء سفري في الزمن.*

ثم تستلقي على السرير، تمدُّ ساقيها دون أن تخلعَ حذاءها، وتتابع:

كُلُّ ذلك من أجلكِ يا عزيزتي. . .

هل تعتقدين أنه من السهل عليَ الغوص في الماضي ومتابعة الأحداث المهمة في حياتكِ وتدوين ملاحظاتي حولها ؟ !

تشبكُ يديها خلف رقبتها ثم تضيف:

لا أدري لم تظنينَ بي دومًا ظنَّ سوء، رغم أن كُل رحلاتي الزمنية هي لمعرفةِ جذورِ مشاكلكِ والمساعدة في حلّها فحسب.

_الحلول لا تعتمدُ أبدًا على ما قد مضى، أنتِ تلوكين الماضي لتعكيرِ مزاجي فحسب!

تردُّ متهكمةً:

_على كلّ حال هذه هي الموهبة التي أتمتعُ بها حاليًا، لكن في حال سمعتِ عن أيّ دورات تدريبية تؤهلني للسفر إلى المستقبل أخبريني. . . .

سألتحق بها من أجلكِ.

أديرُ ظهري لها وأقول:

_لا يهمني الماضي أو المستقبل، أريد الاهتمام بالحاضر فحسب.

تنهضُ عن السرير:

_للأسف لا يمكنكِ إقالتي من وظيفتي، هي مصدر رزقي الوحيد .

_نعم، نهشي من الداخل وحرق أعصابي هو مصدرُ رزقكِ الوحيد !

تتجاهل كلماتي ثم تقف على قدميها وتتجوّل في الغرفة:

_غرفتنا جميلة كما كانت دومًا .

_غرفتي .

_بل غرفتنا ، هل كنتِ تظنين أنكِ لو غيرتِ مكانكِ سأعجزُ عن إيجادكِ !

كم من مرةٍ يجب أن أقول لكِ أنَّ المكان لا يعنيني . . .

أنا أتنقلُّ في الزمان فحسب !

_أعلمُ أنك ستجدينني .

فتردُ بثقة:

_جيد أنكِ بدأت تُدركين أنني جزءٌ لا يتجزأ منكِ .

تقفُ أمام النافذة تُحدّقِ بزجاجها، رغم أنني أعلم أنها لا ترى إلا انعكاسها لكنها تشعرني أنها ترى شيئًا أنا عاجزة عن رؤيته:

_محاولةٌ جيدة. . .العودة إلى منزل الطفولة أو لِنَقُل العودة إلى كرم. . .

تريدين استخدامه كوصفة للنسيان أليس كذلك.

_لا.

_أنا لا أتهمك، بل أفتح عينيكِ على أمرٍ رُبما أنتِ لا ترينهُ جيدًا.

تستديرُ وتضيف:

وصفةٌ للنسيان . . .

فليكُن. . .

وما الذي قد يضرُّه ذلك!

بالمناسبة ما زال يُحبك ولم يتوقف عن ذلك يومًا . . .استغلي الأمر جيدًا.

_لا أريد استغلال أحد !

_أنت لا تستغّلينه . . .تستغّلين الظرف . . . . تستغّلين الفُرصة فحسب .

_أقول لكِ أنني لا أريدُ استغلال شيء . . .فلتصمتي !

_تعلمين أنَّ صمتي ليس مرهونٌ بأوامركِ . . .

في جميع الأحوال سيري في لعبة الصداقة هذه حتى آخرها .

استفزي رجولته بإصراركِ على الصداقة . . .سيُحبكِ أكثر .

_ليست لعبة، هي صداقةٌ حقيقية .

_نعم كصداقتكِ التي كانت مع ليث .

في شرقنا المسكين لا وجود للصداقة بين الشاب والفتاة، افهمي ذلك .

كل صداقة هي مشروع حُبٍّ مؤجَل .

_بل يوجد .

_حسنًا ربما ، إن كنتِ تُخفين أصدقائكِ عني .

في جميع الأحوال أنا لا ألومكِ ولا ألوم أصدقائكِ، فأنتم صنيعة هذا المجتمع لا أكثر .

لماذا تُصبحين عدائيةً عندما أخالفكِ برأيٍ ما !

كوني منفتحة ومتسامحة أكثر . . . .

محظوظٌ ليث لأنه تخلص منك !

_ليس هو الذي تخلَّص مني !

_حسنًا ، تخلصتما من بعضكما البعض .

كنتُ أعلم أن هذه العلاقة لن تستمر وأخبرتكِ بذلك .

_بدأتُ أشعرُ بصداعٍ نصفي .

_أظنُّ أنَّ نِصفك هو المُصاب بالصداع لأنني لا أشعرُ بشيء .

تضحك طويلاً ثم تقول:

_بربك هل كنتِ تعتقدين أَنكما ستستمران معًا !

هو كان ممن يَعدُّون المرأة قطعة أثاث جميلة تُكمل الديكور المنزلي .

وأنتِ كنتِ النسخة الأنثوية من فيديل كاسترو*، تبحثين عن باتيسيا حتى تُطيحي به، ولو لم تجدي واحدًا لكنتِ اخترعتِه اختراعًا !

_ظننتهُ مختلفًا !

_نعم نعم. . .كاتبٌ صاعدٌ وسيم ومثقف، لكن في النهاية كل ما يريده منضدةٌ للكتابة وزوجة مطيعة .

زوجةٌ مطيعةٌ، لا منافِسة نَمتْ مواهبها الكتابية فجأة وبدأتْ تسرقُ منه الأضواء .

الشعر والفن والحِسُّ المرهف كل هذه الأمور يا عزيزتي ستجذب الرجل إليكِ في البداية .

---

* فيديل أليخاندرو كاسترو: قام بتحرير كوبا من باتيسيا بثورة عسكرية وذلك بالتعاون مع جيفارا بعد لقائهما في المكسيك لأول مرة وتخطيطهما للثورة معًا.
المصدر: حياة جيفارا لمحمود عبد الرحمن.

ستعمل كهرمونات بشرية عالية المستوى لكن سرعان ما ستتحول في نظر الرجل إلى إكسسوارات يجب أن تستخدميها في حضوره فقط، ولن يهُمَّه الأمر إن توقفتِ عن استخدامها إلى الأبد .

والآن يا سيدة الفناجين ألن تقدمي لي مشروبًا دافئًا .

تعبت أوتاري الصوتية وأنا أعطيكِ نصائح أعلم أنك لن تعملي بها .

_سأقدّم لكِ أي شيء يجعلكِ تتوقفين عن كلامك الذي لا فائدة منه، فقد انتهت هذه القصة إلى الأبد .

_هذه القصص لا تنتهي، بل تتكرر في كل مرة لكن تتغير شخصياتها فحسب .

أتظنين أنَّ كرم لن يكون نسخة مكررة عن ليث!

فلتتعلمي الأنوثة ولتُجنبي نفسك ألمًا آخر .

_أستطيع التمييز جيدًا بين الأنوثة والعبودية .

بين الحُب والاستملاك .

تُصَفق طويلًا ثم تقول:

هذه العبارات يمكنكِ استخدامها في رواية، أو على خشبةِ مسرحٍ ما ، لكن بالتأكيد ليس في الحياة العملية .

كم من امرأة بقيت كما هي بعد أن تزوجت؟

طموحة وحيوية، وتلقت دعمًا من زوجها لتحافظ على ذلك؟

_كثيرات . . .

_بل قليلات وقليلاتٌ جدًا .

بالزواج ينتهي الطموح . . . . يُوضعُ في صندوق ويُغلق عليه إلى الأبد .

إن كانت المرأة حققتْ أكبر طموحاتها وهو الزواج فما الداعي إلى طموح آخر يستهلك جهدًا ويعكر حياتها الزوجية .

_الزواج لا ينهي الطموح . . .

ينتهي الطموح فقط عندما يكون الزواج بعينه هدفًا لا نتيجة.

هناك فرق بين أن يتزوج المرء لأَنَّهُ وجدَ الشخصَ المناسب الذي يُكمّلِ روحه ويسعدها وبين أن يتزوج بهدف الزواج، فيبحث عن أي شخص ليُكمِل طقوسًا كانت ستكتمل بهذا الشخص أو بغيرِه.

_بدليل أن الزواج التقليدي هو الذي ينجح عادة.

_من الذي قام بهذه الإحصائية؟

وفي أيّ منطقةٍ تمَّت؟

وفي أيّ عام؟

وكم عدد الأشخاص العاجزين عن اختيار شريكٍ لحياتهم فيوكلون هذه المهمة إلى شخصٍ آخر!

كُفِّي عن ترديد كلام لا معنى له!

_لسببٍ مجهول إذن لا ينجح الحب في بلداننا.

_بل معلوم. . . . لأن اندفاعنا نحو الآخر ليس ناتجٌ عن حُب حقيقي بل عن إحساسٍ دفين بأننا مهددون بالبقاء وحيدين فحسب.

_ولهذا السبب تندفعين باتجاه كرم!

_أنا لا أندفع.

الأمور تسير بشكل طبيعي فحسب.

_ألا تخشين أن يخونكِ كما فعل ليث في النهاية؟

_من الذي أخبركِ أنَّ الخيانة مورثة محمولة على الصبغي Y !

صدقيني كل محاولاتكِ التي تقومين بها لجعلي أفقد الثقة بنفسي أو بالآخرين ستكون فاشلة.

تُكمل حديثها كأنني لم أقل شيئًا:

على الرغم من أن ليث خانكِ كردةِ فعل لاستعادة رجولته التي أفقَدْتِه إياها بإصرارك على أمور لا داعٍ لها.

فقد يخون الرجل لا رغبةً في المرأة التي يمارس فعل الخيانة معها بل رغبةً بالمرأة التي خانها .

_نعم الرجل المريض نفسيًا !

_أتنكرين أنكِ كنتِ سببًا في جعله كذلك!

لقد دفعتِه دفعًا ليكون هكذا، ولينتهي في ساحة معركة . . .

ماذا كان ليحصل لو كنتِ امرأةً عادية هادئة، كل هدفها أن ترضي رجلًا كان سيصبح زوجها عما قريب .

_ تُحمليني المسؤولية !

_طبعًا ، لم يستطع التغلب عليكِ في معركته معكِ، فنقل حربه إلى ساحةٍ أخرى.

تحوَّلتْ شهوتُه تجاهكِ إلى . . .شهوةِ قتل.

كم من شخص قَتَلَ يا ترى وهو يتخيلهم أنتِ .

كم من دماغ هشَّم، وهو يتخيلهُ دماغك!

كم قنبلة ألقى، وكل ما تراءى إليه أنه يُفجّرِ عنادك!

كم من الأوصال مزَّق ليحسَّ بلزوجة دماء كبريائك!

وطبعًا في كل لحظةٍ شَعَرَ أنَّ الموت مشتهاه لأّنه يعدّهُ انتصارًا عليكِ.

مسكينٌ الوطن. . . .

يعتقدُ أنّ الشُّبان يستميتون دفاعًا عنه وفداءً له، وهم يموتون يأسًا وقُنوطًا من الحياة أو لينتقموا من شخصٍ آخر!

ألا توافقينني الرأي؟

_منذ متى ونحن نتفق!

_ما زلتِ كما أنتِ.

عنيدةً متبجحةً. . . . تظنينَ نفسكِ سيدة نساء الكون.

إلى متى ستتصنعين القوة!

_لا أتصنّعها .

_هذه الكذبة بإمكانكِ أن تخدعي بها شخصًا آخر لا يعرف كل تفاصيل حياتكِ .

نظرَتْ إليَ نظرة حادة وكأنها تريد الانتقام مني .

رفعَتْ شعرها كذيلِ حصان . . .

تغيَّرتْ سِحنتها ، وكأنَّ الزمن غادرَ أجزاءً منها .

بَدَتْ أقصَر . . .وبملامحَ طُفوليةٍ أكثر .

اقتربَتْ مني . . . . ثم ابتسمَتْ ابتسامةً تُوحي بالمرارة، ثم لمسَتْ كتفي بطرف إصبعها ، مرَرَتُه نحو الأعلى ونحو الأسفل وقالت:

_هناك أشياء قُدّرَ علينا أن نعيشها أكثر من مرة .

أليسَ كذلك !

_لا . . .لا أريد .

_ *بإمكانك المشاهدة فحسب.*

دفَعَتْنِي على الكرسي، فالتصقتُ به وكأنَّ قوة رهيبة ثبتتني.

أغمضتُ عيناي بكل ما أوتيتُ من قوة، لكنني ما زلتُ أستطيع رؤيتها بكل وضوح.

تُمَسِّدُ فستانها الوردي وتصرخ:

(*أمي.... سأذهب لأشتري عصيرًا باردًا*).

فأرى أمي أمامي وهي تمسح يديها بمريلة المطبخ، تفتح الدرج لتعطيها المال وتقول لها:(لا تتأخري يا ورد).

أراها وهي تغلقُ الباب.

تمشي بخطىً ثابتة إلى ذلك الدُّكان، وشعرها يتأرجح خلفها...

أناديها... عودي قبل فوات الأوان.

فتتجاهلني وكأنّها لا تسمعني، ثم تنزل على الدرج المظلم البارد.

أسمع صوتها وكأّنه يخرج من فمي:

(عمو. . .*أريد عصير أناناس، عبوتين من فضلك*) .

ثم يطغى عليه صوتٌ قويٌ وعميق. . . . يرتطمُ بكل خلايا جسدها . . .وجسدي، مترافقٌ بوهجٍ حارٍ يرميها أرضًا، فيُجرح كتفها .

وأشعر أنا بحرقةٍ في كتفي.

تلمسُ هي الدم السائل من كتفها، وترتعدُ خائفةً.

وألمسُ أنا بقايا جرحي ولا أَقِلُّ خوفًا عنها .

_ (هل أنتِ بخير، أنتِ تنزفين) . . . . يقول لها ال(عمو) بعد أنْ تحسَسَ أجزاء جسدهِ واطمأنَّ أنه سليمٌ معافى.

تنظر هي إليه بعينين غائمتين وصوتٍ ضعيف:(*ما الذي حصل؟*)

فيجيبها:

(يبدو أن صاروخًا سقط على الحيّ، فهُدِمَ مدخل القبو. . .

لقد علقنا هنا في الدكان، لكنني أسمع صوت فوضى في الخارج، ما أن تهدأ الأحوال سيخرجوننا . . . . لا تقلقي)

ما أن ينهي عبارته حتى أصرخُ بها بأعلى صوتي بل اقلقي. . .يجب أن تقلقي.

لكنها لا تتحرك من مكانها !

يلمسُ هو جرحها، ثم يشق جزءًا من جلبابه الأبيض ويلفُّ كتفها .

وأشعر أنا بملمس كفِّه الخشن على كتفي، فأتقزز.

يرشُّ وجهها بالماء . . . . فأشعر بسائلٍ يقطرُ من ذقني.

(يجب أن تبقي مستيقظة)

أُرددُ أنا من خلفه. . . . هيا استيقظي استيقظي.

تهتزُ الأرض، فيتساقط تراب على وجهها وشعرها .

فأصرخ: ورد أعلم أنك تشعرين بكل ما حولكِ، استجمعي قواكِ وانفضي التراب عنكِ. . . . لا تدعيهِ يلمسكِ.

أعلمُ أنك تسمعين كلَّ شيء، و تُحسّين بالتراب يملأ أذنيكِ ويتعشَّق في حنجرتكِ.

تنحنحي قليلًا، أشعريهِ أن فيك نَفَسٌ من القوة.

يُمزّق هذه المرّة جزءًا من فُستانها الوردي، يبلُله بالماء ويمسحُ وجهها وينفُض عن شعرها التراب.

فأشعر برعشةٍ في عمودي الفقري. . .

يجلسُ أمامها مُسندًا ظهره إلى الحائط، متأملًا ساقيها المغبرتين المليئتين بالخدوش، وقدمها اليسرى التي فقدَتْ حذاءَها.

تقعُ يدهُ على علبة سردين سقطتْ من على الرف، يتأملها قليلًا ثم يتمتم: (سأموتُ مرةً واحدة ولا أريد الموت جائعًا).

يجرح يده وهو يفتح العلبة، فيلعق إصبعه الدامي.

لا مشكلة لدى هذا الرجل مع الدماء أو الموت أو الأنقاض!

يلتهمُ هو السردين بيده اليمنى بعد أن يذكرَ اسم الله. . . .

وأشمُّ أنا تلك الرائحة الزخمة التي تملأ الجو. . .

أحاول عبثًا أن أتحرَّك من على كرسيي لأُوقظَها، لكنّ الرائحة تُقيّدني أكثر. . . . تشلني!

يُنهي وجبتَه ثم ينهض بسرعة كمن أتته فكرةٌ ما، ويجرُّها نحو الداخل، إلى عمق الدكان.

أخائفٌ هو عليها!

ليتكِ بقيتِ يا ورد على الدرج وغطاكِ الركام.

أراهُ يتململ في جلسته، يُقرّب قدميه من يده ويخلع حذاءه ثم يمدهما من جديد. . . . باتجاهها!

توقفتْ الأصوات في الخارج. . .

هيا اصرخي. . . . سيسمعونكِ الآن إن صرختِ. . . . هيا .

لكن ما من صوتٍ إلا صوتُ أنفاسِه المتسارعة.

يبدو أنه يبحث عن تحليةٍ بعد وجبة السردين!

بدأ يلتهم أصابع قدمِها اليسرى المطلية بلون وردي مغبرٍ بعينيه. . .

لم يذكر اسم الله هذه المرة. . .

أيعتقدُ أنَّ الله لا يزور الأماكن المُعتمة والمُهدمة!

أين الملائكة؟

لماذا لا ترمي أقلامها وأوراقها وتحملُ هذا الجسد الصغير؟

لن تعجز أجنحتها القوية عن حمل أربعين كيلوغرامٍ من اللحم والعظم والأحلام.

فلتؤجّلِ تدوين التفاصيل ولتحملني إلى أقرب غيمة أو إلى أي مكان لا تختلط فيه رائحةُ العرق باللعاب النتن، ولا أشعر فيه بِثقَلِ جسدٍ يهدمُ طفولتي، ولا بألمٍ يثقبني ليحوّلَني إلى جرح.

إلى مكان أستطيع فيه أن أدور وأدور بفستاني الوردي دون أن تُلطخه أي بقعة دماء .

أيتها الملائكة لقد تأخرتِ . . .

أشعر أن جسدي أصبح ثقيلًا بحيث بدأ يغوص في الأرض.

سألتحم بها وأنتِ ما زلتِ تُسجّلين مواصفات الجاني . . .

لا داعي لتُحرّكي أجنحتك الآن، فقد قُضِيَ الأمر.

إنَّ تدوين اسمه واسم أمه ودينه وعمره ووزنه وطوله وبصمات أصابعه التي ستشهد بفعل يديه أهم من إيقاف الفعل نفسه!

لم يعد لديّ صوتٌ لأناديكِ أو لأنادي ورد .

لقد ابتلعه صوتٌ آخر يُهلل (للبطل) الذي أنقذني وأوقف نزيف كتفي.

_لسبب ما يكون الأبطال في الحقيقة مُجرمين أليس كذلك؟

قالت ذلك بعد أن نفَضَت عنها بقايا الطفولة والغبار والسوائل اللزجة.

ثم أضافَت بعد أن رفعَتْ ذقني بيدها، وزمّت شفتيها:

_ماذا . . .أتبكين؟

قبل قليلٍ كنتِ المرأة الحديدية المؤمنة بالإنسانية والحب.

من الذي سيُحبك بعد هذا . . .من الذي سيُصدقكِ؟

وتذكري دومًا أنكِ من رضيتِ بأن تكوني الضحية الضعيفة بِصمتِك.

لو تكلمتِ حينها لكان تغير الوضع.

أردتُ أن أجيبها . . . .

فتشتُ عنها في الغرفة لكنني لم أجد إلا انعكاسي في المرآة وشعري مرفوعٌ كذيل حصان. . . .

بعثرتُه بسرعة. . .وتبعثرتْ معه أفكاري.

بماذا كنتُ سأجيبها !

في قهوة ع المفرق. . . . في موقدة وفي نار

يحدث أنْ أستيقظُ صباحًا كاليوم وأشعر أنَّ لا شيء داخلي في مكانه الصحيح، وكأنَّ إعصارًا ما عَبِثَ بروحي.

إنَّه لمؤلمٌ حقًا أن يكون الإنسان منبوذاً، ولكن الأكثر إيلامًا هو أن يكون منبوذاً من ذاته، فيحاول مرارًا وتكرارًا أن يتقيأ نفسه. . . . ويفشل في ذلك.

شعرتُ البارحة أنني تلميذةٌ في حضرةِ كيانٍ أعظم مني والمؤلم أنّ هذا الكيان الذي يهوي بعصىً من الذكريات المؤلمة على يديَّ الصغيرتين هو أنا . .

لأهرب منه وأنحشر في زاويةٍ ضيقةٍ داخلي متكورةً على آلامي ولأدافع عني بكلمات مقتضبة إن سنَحَتْ لي الفرصة في حضرةِ هذا الكيان.

كيف نشأ؟

كيف تكوَّن؟

لا أدري حقًا . . .ولا أدري أيضًا من منّا قد نشأ قبل الآخر.

لا أدري إنْ كان وحيدًا بقوّته الجبارة أم يستقيها من آخرين يرافقونه أو يتبادلون معه الأدوار، وأنّني أنا الضعيفة الوحيدة بينهم!

هل هذا الكيان هو ما يُدعى بالضمير!

كنتُ أعتقد أنَّ الضمير عُنصر شفاف يتوَضع في منطقة الصدر ينقبض عندما نخطئ، فيشدُّ شغاف القلب قليلًا كإشارة تحذيرية لنصحح مسارنا.

أما ذلك الصوت الذي يرتطم بقفصي الصدري ويعلو داخل رأسي فلا أدري ما هو حقًا.

هل هو صدىً لصوتي الذي حاولتُ كتمانه يومًا ما؟

هل هو صدىً لأصواتِ الآخرين من حولي؟

أم أنه منفصلٌ عن كل ما حولي وعني أيضًا؟

كل ما أعلمه أنه لا يستلم زمام الحديث إلا عندما أشتهي الصمت تمامًا، وعلى الرغم من حكمته في الكثير من الأحيان إلا أنني وددتُ لو امتلكتُ زرًا جانبيًا لأُخفِّضَ ضجيجه داخلي لحظة أريد.

رغبتُ بالهروبِ من كل شيء.

منّي...منهُ...

منهُ...منّي...

مَن أنا ؟ ومن هو؟

وهل أنا أنا حقًا؟ ومن أنا على وجهِ التحديد؟

ماذا لو كنتُ أنا الصوت المزعج داخله؟ ماذا لو كنتُ أنا المتطفلة وهو الأصل.

لكنني أعلم أن هدوءه الصباحي غير مبشرٍ بالخير، فهو يختفي تمامًا في بعض الأحيان كأنه لم يكن، ليأخذ قيلولة ويشحذَ طاقته أو لينسلَّ على رؤوس أصابعهِ عابثًا بذاكرتي ليُجهّز لي محاضرة من العيار الثقيل.

رنَّ الهاتف وكأَّنه كان استجابةً سماوية لانتشالي من ذاتي، وأخيرًا صوت لا يشبهُ صوتي ولا يتشبَّه به.

علا صوت كرم على كل الأصوات وأخبرني أنه ينتظرني في قهوةِ المفرق القريبة.

ارتديتُ معطفًا سميكًا بعد أن طَرَقَ المطرُ نافذتي، أغلقتُ الباب خلفي بسرعة. . .وها أنا الآن خارجًا أشعرُ أنَّ الغيومَ على الأرصفة. . . .تمطرُ نحو الأعلى، ولا أبتلُّ أنا بحبة مطرٍ واحدة. أتعثَّرُ بالنجمات، أقع سماءً. . . .

تنزفُ الشهب من ركبتي، وتتسخُ ثيابي بغبارٍ أزرق، أركض كالمجنونة في الشوارع، أقفزُ من غيمةٍ إلى أُخرى، علَّهُ تطالني قطرة. . .قطرة واحدة فقط.

لأغسل بها نفسي من نفسي. . .

****

فرحتُ يا ورد عندما وجدتُ الزاوية المحببة إليكِ في المقهى غير مشغولة.

جلستُ على الكُرسي الخشبي وأسندتُ رأسي بكفي ودارت عينيّ بجولة في أركانِ المقهى، لأطمئنَّ أنَّ كل شيء في رُكنه الأزلي. . .

الفوانيس الملونة التي تتدلى من العوارض الخشبية، الحائط المقابل لي المُلبَّس بمادة ما تجعله يبدو كفقاعات شوكولا تغلي، مجموعة الأطباق الملونة ما زالت في ركنها المخصص أيضاً أعلى المدفأة المتوهجة بدفءٍ عميق. . . . عشرة أطباق منقوشة بنقشاتٍ هندسية دائرية يختلط

فيها الأزرق بالبنفسجي، الكراسي الخشبية ذات المساند المخملية التي تحيط بطاولات مُستديرة وعلى كل طاولة كرةٍ زجاجية ثلجية.

وأخيرًا صوت فيروز يغسلُ المكان بطمأنينةٍ خاصة...

أتعلمين يا ورد...؟

لو كان البشر مخلوقون من صوت.... لخُلِقتِ أنتِ من صوت فيروز...

وجهكِ ما هو إلا انعكاسٌ لبحّة صوتها.

مبتلٌ صوتها بدمع الملائكة كوجهكِ الآن وأنت تسيرين نحوي، لا تسيرين على الأرض إنما على اللّحن.

_صباح الخير.

_صباح الورد يا ورد.

_كيف حالكَ؟

_بخيرٍ يا صديقتي.

قبل أن أنسى هذا الكتاب الذي استعرتهُ منكِ.

شكرًا ورد، أحببته كثيرًا.

_بإمكانكَ الاحتفاظ به. . .أعلم أنكَ (دودة كتب)، وأعجَب حقًا أنه لا مكتبة لديكَ!

_عندما تنتهي الحرب سأجمع كل كتابٍ قرأتُه يومًا، سأعيدهُ إلى حضني كمن يسترجع ابنه بعد سفر.

_ما الرابط بين الحرب والمكتبة؟!

_منذ بدأتْ هذه الحرب توقفتُ عن جمع الكتب، بدأتُ باستعارتها فقط.

الحرب تعني عدم الاستقرار، الحرب تعني التشرُّد وما من مُتشرِّد لديه مكتبة.

على الرغم أنني لم أغادر منزلي خلال السنوات الأخيرة، إلا لأحتمي في الملجأ بضعُ ساعاتٍ أثناء القصف، لكن لم يفارقني إحساس التشرُّد يومًا .

في الحرب وسادتكِ ليست وسادتكِ .

ملابسكِ ليست ملابسكِ .

والأهم روحكِ ليست لكِ .

لم أرغب أن أُحيط نفسي بأشياءٍ ليست ملكي، أشياء يهددني بها الفقد فتتملكني بدلًا من أن أتملكها .

_إن الأوقات الصعبة التي مرَّت على هذا الحي أكسبتكَ فلسفة خاصة .

قلتِ ذلك وأنت تقلبين صفحات الكتاب فوَقعتْ منه ورقة .

_ألم أخبركِ أن الكتاب أكثر من رائع، لكنكِ لم تسأليني ما الذي قد أثار إعجابي به.

لوحتُ لكِ بالورقة.

_هههههه

_ما زلتِ كسنجابةٍ صغيرة تُخبئين ثمار فِكرك داخل الكُتب وتنسين أين تضعين مؤونتكِ!

وبالطبع أنا محظوظٌ لأنها تقع بين يدي.

لقد أثار اهتمامي محتوى الورقة أكثرَ من الكتاب:

أحيانًا أغارُ من نفسي

عندما أكتبُ قصيدة

وأتمنى ألا أكون نفسي

أن أكون أحدًا غيري

لأُكتُبَ لي نثرًا

لأُكتُبَ لي شعرًا

لأدللني يومًا

لأقطفني نغمًا نغمًا

لألملمني حرفًا حرفًا

وأرسم بي قصيدة . . .

أجل أنا التي أتمنى

ألا أكون أنا

لأسمو غيمًا

لأنسكب خمرًا

لأُزهر لوزاً

عندما أُكتبُ لي قصيدة . . . !

_متى كتبتِها يا ورد؟ ولماذا؟

_ كتبتها كإجابة عن سؤال.

_ما هو السؤال؟

_السؤال:

(ماذا لو لم أكن أنا وكنت أحدًا آخر. . .هل كنتُ لأقعَ في غرامي؟) .

_سؤالٌ غريبٌ وعميق.

_ماذا كانت لتكون إجابتكَ أنتَ عليه؟

_الأمرُ بحاجةٍ إلى تفكير، فسؤالٌ كهذا لا يمكن أن تكون الإجابة عليه بنعم أو لا فقط.

_نعم، عليكَ أن تدرس نفسكَ قبل الإجابة.

_وفقًا لما قد كتبتهِ أنتِ، فقد تُغرمين بنفسكِ حقًا .

_ربما هذه المشكلة الحقيقية، لِمَ على الغرام أن يكون وقوعًا ؟ !

لماذا يتمُّ التعبير عنه كهبوط شخص كان في مكان مرتفع ثم سقط !

_أنتِ من عبَّر عن الأمر بالوقوع.

_لستُ أنا . . .أنا استخدمتُ مصطلحًا شائعًا لا أكثر.

_بإمكانكِ تغييره، ليس عليكِ بالضرورة أن تلتزمي به. . .

إن انتقاء مصطلحاتكِ وكلماتكِ سيغيّر الكثير من القناعات المُخزَّنة داخل عقلكِ.

فلتستبدلي كلمة وقوع ب (تحليق) مثلًا .

الحب بالنسبة لي ليس سقوطًا بل تحليق.

_هل كانت لتتغير الإجابة؟

_حسبما أرى، لقد أجبتِ بطريقة إيجابية على الرغم من اعتراضكِ على كلمة (وقوع) في السؤال.

_هل برأيكَ كذبتُ على نفسي؟

_ليس كذبًا بمعنى الكذب، فكلُّ الكائنات على سطح هذا الكوكب تستحق الحب، ولكنها لا تعلم أنها تستحقه.

_لقد كانت محاولةً فاشلة لإرضاء الأنا .

_ما هو تعريفكِ للأنا ؟

_شيءٌ جبارٌ ومتعجرف، لا يرضيه أي شيء أقوم به، ولا يُحس بنشوة إلا عندما أكون مُحملةً بالآثام والشعور بالذنب.

_لكن هذه ليست (الأنا) الخاصة بكِ. . .

أنتِ بالذات يجب أن تُميّزي بين الأنا وبين ما يأتي من خارجها .

لقد قرأتُ مرةً على لسان شخصية في إحدى الروايات تقول:

(أنا . . . . اللأنا، تكوَّنتُ من كل ما هو خارجي وظننتُ أنَّه أنا) .

في هذه العبارة وعيٌ وإدراكٌ عميقان.

دومًا هناك أمورٌ يتم تخزينها في اللاوعي مصدرها وسطكِ المحيط. . . .

المجتمع، العائلة، المدرسة. . .

نفتح أعيننا على هذا العالم فنجدها . . . لقد كانت موجودة قبلنا دومًا، لكنها اخترقتنا وشكلت داخلنا حاجزًا هائلًا نخشى اختراقه.

_الأنا الأعلى*؟

_تمامًا (الأنا الأعلى).

ليس بالضرورة أن يكون الأنا الأعلى مُصيبًا دومًا، فهو متغيرٌ بتغيرِ المحيط، قد يلعب دورًا إيجابيًا ولكن قد يلعب آخر سلبيًا . . . لأنه قد يُدينكِ بأفعالٍ ليست من صُنعكِ، وهنا يأتي دور الأنا التي أنضجتِها أنتِ بخبراتكِ وبمعرفتكِ وبقراءاتكِ لتضع حدودًا للأنا العُليا .

* الأنا الأعلى: مصطلح تم استخدامه من قبل فرويد، وهو وارث الأهل والمُربيين الذين أشرفوا على تربية الشخص في سنواته الأولى ويستمر في أداء وظائف هؤلاء المُربين ويميز بينه وبين الضمير، حيث يعتبر الأنا الأعلى هو جزء من العقل استنتجنا وجوده أما الضمير فمهمته مراقبة أفعال الأنا، استكانةً للأنا العليا.
المصدر:(الحب والحرب والحضارة والموت لسيجموند فرويد)

كل ما عليكِ فعله هو أن تُميّزي بين ما تختارينه وبين ما قد فُرض عليك.

فهذا الاسم الذي تحملينه ليس أنتِ.

هذه اللغة التي تتحدثينها ليست أنتِ.

هذا المعطف الذي ترتدينه ليس أنتِ.

هذا الجسد الذي يُغلِّف روحكِ ليس أنتِ.

عليكِ أن تميّزي هذه المتغيرات التي تتنكر بكِ. . .أن تتعلمي كيف تنفصلين عنها . . .أن تكوني مراقبةً خارجية للأحداث.

_ تقصد بذلك الأشياء الثابتة وليست المتغيرة؟

_ليس تمامًا، بل أقصد أنَّه عليكِ التركيز على الأمور غير الملموسة والتي لا يستطيع أحد غيركِ أنتِ تغييرها، فالجميع في حالة تغيُر مستمر، حتى أنتِ غير قادرة على لقاءِ ذاتكِ مرتين.

كل مرةٍ تقفين فيها أمام ذاتكِ ستكون المرة الأولى، لكن عليكِ امتلاك عينٍ ثالثة قادرة على أن تتأملكِ من الداخل. . .عينٌ صادقة ترى هذا التغير كما هو.

_هل من الممكن ألا تكون صادقة؟

_طبعًا، فهنالك ثلاثة أنواع لهذه العين:

إما أن تُشوّهكِ بنظر ذاتكِ، أو أن تجعلكِ أجمل من حقيقتكِ أو أن تكون انعكاسًا حقيقيًا لكِ، يحتاج الإنسان لخبرةٍ عميقة كي تكون عينه الثالثة غير مزيفة.

_أيٌّ واحدة هي عيني؟

_أنتِ تتذبذبين بين النوع الأول والثاني، لستِ أنتِ فقط . . .بل معظم البشر كذلك، لذلك لا يكونون قادرين على تحديد مفهوم الأنا، فهُم إما أن ينظروا إلى أنفسهم بنظرة دونية أو أن يقوموا بعملية فوتوشوب لها.

_وما السبب برأيكَ؟

_لأن الإنسان غير قادر على تقبُّل ذاته ببساطة، هو المخلوق الوحيد الذي يسعى لأن يكون شخصًا آخر.

_وهل أنا كذلك؟

_بإمكانكِ معرفة ذلك بالإجابة عن سؤال واحد وبسيط: (كم مرة رغبتِ بتغيير زمانكِ ومكانكِ؟)

_آلاف المرات!

_هذا سعيٌ مبطنٌ لنبذ الذات، ففي اللحظة التي تحاولين فيها التنصُّل من زمانكِ ومكانكِ. . .أنتِ تحاولين الانسلاخ عن نفسكِ لتكوني شخصًا آخر.

ففي مكانٍ آخر وفي زمانٍ آخر، لن تكونين أنتِ، بل ستكونين شخصًا آخر.

_وما الحل؟

_الحل أن تستخدمي عينكِ الثالثة بأمانة، وحُبُّ ذاتك هو عَقدُ هذه الأمانة.

تأملتني بعينين مبتسمتين:

_كيف أصبحتَ على هذه الصورة في غيابي؟

_ رُبما هي نعمة أننا لم ننضج بجانب بعضنا البعض، نضج كل منا على حِدى. . . . لأشاركك عُصارة روحي ولتشاركيني عصارة روحكِ. إنه كوكتيل من نوع خاص.

_لا تتأمل كثيرًا، فعصارة روحي ليسَتْ غنية.

نقرتُ على الطاولة. . .

_عينكِ الثالثة ليست صادقة، وريثما تتعلم أن تصبح صادقة سأعيركِ عيني، فلتري نفسكِ بها . . .

ورد فلتبدأي بحب ذاتكِ يا صديقتي.

أومأتِ برأسكِ:

_سأحبُّها . . .

_ماذا لو وجدتِ مصباح علاء الدين يومًا واقترح عليك المارد تغيير نفسكِ؟ !

_امممممم

_لا تُهمهمي، عليكِ أن تفركي حينها المصباح لتعيدي المارد إلى مكانه.

أنتِ أروع من أن يتُّم تغييركِ، ارفضي التغييرات الخارجية دومًا ورحبّي بالداخلية.

_أتعتقد أنني لا أرغب بمن يحبني كما أنا !

_ليس عليكِ أن تشغلي تفكيركِ بمن سيحبكِ، عليكِ أن تنشغلي بما تحبينه أنتِ.

_أنا ككل فتيات هذا العالم.

أحبُّ من يحبُّ قبحي . . .

شفاهي المتشققة. . .

هالاتي السوداء . . .

كُحل عيني العشوائي. . . .

قميصي غير المكوي. . . .

أحبُّ من يحبني وأنا أقفزُ بعفوية من شارعٍ إلى آخر لألحقَ بقطةٍ بدينة. . . .

من لا يخجل أن يجلسَ بجانبي على الرصيف عندما أشعر بالتعب. . .

من لا يعطيني منديلًا عندما أبكي، بل يسمح لي أن أسيل حتى آخر قطرة. . . .

من لا يُسرّح لي خصل شعري العشوائية. . . .

من يحتمل فوضويتي . . .سريري غير المرتب دومًا . . .وفناجيني المكدسة على الطاولة وغير المغسولة. . .

من يحبني بكل عيوبي ويعجز عن الابتعاد عني لحظة، وعندما أبتعد يُمسكني من أذني ويعيدني إلى قلبه.

نظرتُ إلى تلك الدمعة المكابرة في عينيكِ:

_أولًا أنتِ لستِ ككل فتيات العالم، كل إنسان حالة خاصة لا تتكرر.

ثانياً هل رأيتِ يومًا وردة تُطلق عبيرها كي يُحبها الآخرون؟

إن الوردة تحبُّ نفسها . . .هي مقتنعةٌ بذاتها . . .لذلك تفوح بالشذى، لم يخطر ببال الوردة يومًا أن تُطلق عطرًا كي يُحبها أحد، بل تطلقه فحسب ومن حولها يقعون في غرامها .

وردةٌ واحدة تقوم بذلك، فلا تستهيني بذاتكِ، فأنتِ (الورد) .

_لا أظنكَ فهمتني بشكل جيد .

_بل فهمتكِ، أنت تدورين في فلك حبك القديم يا صديقتي، على الرغم من أنكِ توهمين الآخرين أنكِ تحررتِ منه إلا أنكِ لم تتحرري بعد، ولن تتحرري إن لم تسمحي لألمكِ أن يبلغ ذروته كي ينطفئ تمامًا .

أنتِ تقمعين هذا الألم لذلك سيطفو بين الحين والآخر محاولًا أخذ منحاه الطبيعي لكنكِ بتجاهله ستعيدينه إلى نقطة البدء من جديد، أطلقي سراح ألمكِ وأخبريني عنه .

_إنه لمن المؤلم أن يغيب أحدهم من حياتكَ لأنك فقط تحاول الحفاظ على شخصيتكَ، على أهدافكَ، وعلى طموحكَ. . .وعندما لا تستكين، يخترع هدفًا ويتبعه. . . .

كان في كل مرة يحاول أن يصنع مني امرأة لا تشبهني كي يُحبها .

_أُسمي هذا بمتلازمة مايكل آنجلو.

_مايكل آنجلو؟

_كان يحاول أن ينحتكِ وفقًا لهواه.

_صدقتْ.

لقد أخطأتُ وأحببتُ مايكل آنجلو.

لا مُتسع بين ذراعيه لعناقي. . . .

يداه مشغولتان . . .

يمسك إزميلًا بيدٍ، ومطرقة بيدٍ أُخرى لينحتني كتمثال!

شفتاه ملطختان بدمي وبُرادة روحي.

يؤجّل في كل مرة قُبَلَه ريثما ينتهي من تشكيلي ليصنع مني آلهةً من حجر!

_انظري إلى نفسكِ، التماثيل دومًا أجمل من صُنَّاعها، النحَّات يعوّض عن قبحه فيحوّله جمالاً في تمثال.

انظري إلى كتفيكِ الذين شقهما ليُخرِجَ منهما جناحين...

استخدميهما وحلّقي، رفرفي بآثامكِ...

ستباركِ السماء...فلا ملائكة...ولا قدّيسين.

وبمناسبة التماثيل، غدًا سنذهب في رحلة قصيرة، أريد أن أريكِ شيئًا ما.

_حسنًا.

_ورد، من الذي دقّ المسمار الأخير في نعش حبكما؟

_أنا، لكنه من قام بالتشييع ولم يكترث لدفنه حتى.

_جيد أنه لم يفعل، لو دفنه لوجد النعش فارغًا.

_أتقصد أنه ما من حب في الصندوق؟

_تمامًا.

_لا أظن ذلك، أتخبرني أن كل ما قد عشته وهم!

_أجيبي أنتِ عن سؤالك، ماذا لو عاد؟

_لن يعود.

_فلنفترض ذلك.

_أخبرتك أنه لن يعود.

_ورد، إنها فرضية لا أكثر.

_لا، ففي الفترة الأخيرة بتُّ أخشى أن أصبح هو، وألا يصبح أنا.

_خشيتِ أن يطمس كينونتكِ؟

_كان ليفعل دون أن يترك لها أثرًا وسأكون مجرّد شخصية وهمية أختبئ خلف نفسي بصورتِه.

أتعلَمْ! في النهاية شعرتُ أنني أخونه مع نفسه، لم يعد هو بل أصبح هم (من هم . . .لا أعرف) ولم أعُد أنا بنظره، لأنني لم أصبح هنّ (من هنّ! أيضًا لا أعرف).

_كان صراعكم من نوع خاص بين ال (هم) وال(هنَّ)، رغم أنهم مجاهيل وأنتما المعلومان.

إنها لعنة المجتمع التي تُجبر كل اثنين على الانتماء إليه قلبًا وقالبًا، روحًا وجسدًا.

إذن رفضتِ أن تكوني من فئة (هنّ)؟

_حتى اللحظة أُفضِّل أن أبدو كما أنا ولينفضُّوا من حولي على أن أرتدي وجوههم ليصفِّقوا لي.

_حسنا ما الذي يخيفكِ إذن طالما وجهكِ هو وجهكِ!

ابتسمتِ ابتسامة ماكرة:

_وجهي ليس أنا، وابتسامتي ليست أنا أيضاً . . . . هذه الأشياء تتنكّر بي لا أكثر.

_تستخدمين دروسي ضدّي إذن يا ورد.

_شيء من هذا القبيل.

_فلنعد إلى موضوعنا.

ما الذي يزعجكِ؟ ما الذي يخيفكِ؟

_لا أدري تحديدًا.

_أعداؤك؟

_على العكس، لا أخاف أعدائي. . .ألا يُقال أنَّه في كل عدوٍ مشروع صديق، وفي كل صديقٍ مشروع عدو.

_إذن تخشينَ أصدقائكِ! وهل أنا ضمن قائمتكِ السوداء؟

_أتعلَمْ كرم! أخاف حقًا ممن يمسكون بأصابعي، ممن يضفرون جدائلي. . . . أولئكَ الذين يشترون لي الحلوى ثم يهربون.

أو. . . . لا . . . . لا أخاف منهم بل من غيابهم، بل أخافُ ألا أجد أحدًا يقوم بما كانوا يقومون به فأضطر لتعلّم القيام بأشياء بسيطة مُنهِكة. . .

_ألم أقل لك النعش فارغ يا صديقتي، فالحاجة لا تُصنَّف ضمن الحب.

في اللحظة التي لا تشعرين فيها بحاجةٍ ماسّة للشيء ستحصلين عليه، شعور الحاجة يولّد في النفس ضعفًا . . . والضعيف يخسر دومًا .

يجب أن تتعلمي هذا الدرس وتفهمينهُ جيدًا .

_أنا متأكدة أنه أحبني.

_كيف؟

_من عينيه، لا يبكي الرجل إلا إذا أحبَّ فتاة.

_كان يبكي دومًا أو متى؟

_لا ليس دومًا، عندما يشعر أنني على شفا حفرة الفراق.

أديرُ ظهري لها وأهوي...

يبكي ويمسكني....

_لم يفعلها آخر مرة؟

_لا لم يفعلها والآن أنا أهوي في حفرة الفراق ولم أصِل للقاع بعد.

عندما أصِل هل سأتهشّم أم ستنبت لي أجنحة من العدم قبل القاع بثوانٍ؟

_ستتهشمين ثم ستتعافين لتصبحي بجالٍ أفضل.

هل كنتِ كل مرة تهددّين بالرحيل وتتوعدين؟

_نعم. . .لدرجة أصبح رحيلي كذبة واهية، ربما لم يصدّقها هو حتى اللحظة. . .

أمسكتِ الكرة الثلجية بين يديكِ، فتحركت ضمنها زوبعة بيضاء غطت الكوخ الخشبي الذي بداخلها:

_أتعلَم!

لقد بنيتُ منزلنا في خيالي غرفةً. . .غرفةً.

أنجبتُ طفلتنا من رحم أحلامي.

مسحتُ أنفها الصغير، ودفنتُ رأسي في عبق خديها الممتلئين، سمعتُ صوت ضحكاتها، شعرتُ بملمس قواطعها تعضّ على أصابعي.

كيف استطاع أن يُعلمها الركض خارج حياتي قبل أن تتعلم الحبو!

_لا يجب أن تحزني، فالطفلة لا تزالُ موجودة في مكان ما من هذا العالم، بل هي أقربُ إليك مما تتخيلين.

كفاكِ حسرةً على شيء لم يرحل. . .أنتِ موجودة فكل شيء من الممكن أن يوجد بوجودك.

قمتُ بطلب الحساب، وأمسكتُ بيدكِ. . .فسألتني:

_إلى أين؟

_ستعلمين بعد قليل. . . .

إيه في أمل. . . . مرات بيطلع من ملل

أمسكَ بين يديه عِقدًا مُرصعًا بأحجارٍ فيروزية اللون، تدلّت منه ريشات نحاسية.

_سيليق بلون عينيكِ.

قالت الفتاة المسؤولة عن قسم الإكسسوار:

_زوجكِ يتمتع بذوقٍ رفيع سيدتي.

لم يترك لي فرصةً لأخبرها أنه ليس زوجي، فقد قفزَ إلى قسم العطور ومواد التجميل.

_هالاتٍ سوداء وشفاهٍ متشققة! لن يكون لهما وجودٌ بعد اليوم.

على الرغم من أنَّه كان يختار ألوانًا غريبة ومن المحال أن أضعها على وجهي إلا أنني كنت سعيدة به للغاية.

_كريم يُعزز الكولاجين. . .ردَّ خلف الفتاة المسؤولة بعد أن أخذ من يدها العبوة، ثم أردفَ وهو يتجوَّل بين الرفوف التي رُتّبت عليها العبوات وقرأ ما كُتب عليها:

_ستحتاجينه حتمًا .

شامبو بالكرياتين. . . . سيفُكُ كل تشابكات وعُقَد حياتك.

كريم بخلاصةِ الكافيين. . .سيكون مفيدًا للقضاء على سيللوليت الذكريات.

مُرطب بخلاصة الخيار. . .سيشُّد ثقتكِ المُتهدّلة بنفسك.

مقشرٌ كريستالي. . . هذا ستحتاجينهُ لتقشيرِ الخلايا الميتة في بشرتكِ التي ما زالت على موعدٍ مع الماضي.

تعبيراته أضحكتني:

_يجب أن تكونَ خبيرَ تجميل.

وضع المشتريات أمام المحاسب، ثم أمسكَ خصلة من شعري.

_ريثما أُصبح خبيرًا للتجميل، أنتِ تحتاجين إلى خبيرٍ حقيقي، لن ننتظر.

أمسكَ الأكياس بيده، وتوجّه إلى الدرج المتحرك الذي هبط بنا إلى الطابق الأول من المجمّع التجاري . . .

_تريدُ أن أقصَّ شعري؟!

_ما من رجل يستحق أن تقصّي شعرك من أجله. . . . تأكدي من ذلك.

أصوات المُجففات منعتني من معرفة ما كان يخبر به مصفف الشعر، لكنه استدار وأخبرني:

_سأعود بعد ساعة. . .أنتِ بأيدٍ أمينة.

_أتمنى ذلك. . .

_لن أتأخر.

قادتني إحدى العاملات إلى المغسلة بعد أن وضعَت منشفةً على كتفي.

غسَلَتْ شعري بماءٍ دافئ، ثم دلّكتْ فروة رأسي بزيوت مغذية.

التيار الدافئ المفعم برائحة اللوز والصبار، سَحب كل الآلام من رأسي.

أحسستُ باسترخاء وخدَرٍ لذيذين، ولم أصحو إلا عندما شعرتُ بمبردٍ يحفُ أظافري. . .ربما ليخلصني من بقايا جريمةٍ علقت تحتها.

إهمالُ الأنوثة جريمة على كل أنثى أن تُعاقبْ عليها بالحبس يومًا في الأسبوع داخل غرف التجميل.

إنه السجن الأروع!

فالأنوثة كائنٌ حيٌّ لا ينمو إلا بالاهتمام.

أما الجريمة الكُبرى فهي ربط الأنوثة والجمال بالسطحية والتفاهة!

وكأَنَّه قُدّر على كل مُثقفة مُتعلمة أن تكون شعثاء الشعر، دهنية البشرة، رثَّة الثياب!

ما العيب برأسٍ ممتلئ بالأفكار، تزينُه خصل شعرٍ مموجة وحيوية!

ما العيب بشفتين متوردتين تُلقيان الشعر!

ما العيب بعينين براقتين تقرآن النثر!

ما العيب بأذنين مزينتين بقِرطين لامعين تستمعان إلى محاضرة علمية!

لا عيب إلا في كل نفسٍ تعتقد أنَّ الجسد حِملٌ ثقيل وأنَّ الاهتمام به إثمٌ ديني يستحقُّ العقاب.

لا عيب إلا في كل نفسٍ تِتهم الفتاة بسوء أخلاقها انطلاقًا من جمال وجهها وأناقةِ ثيابها.

لا عيب إلا في كل نفسٍ تظنُّ أنَّ الأنثى تصطاد عريسًا إن وضعتْ كُحلًا في عينها .

العيب بمن يُدَّني الرجل من رتبة الإنسانية إلى رتبة الحيوانات .

وأيُّ حيوانات !

الفرائس منها !

ما العيب في ممارسة الحياة على أنها حُلم !

ما العيب في هذا اللون الوردي الذي يصبغ أظافري !

أيخدش إيمان أحدهم !

ما هذا الإيمان الذي يخدشه ظفرٌ وردي !

ما العيب في خصل شعري المتموجة التي تعانقُ خصري !

أستُثقل كاهلي عن حمل كتاب !

أرثي لحالنا نحن معشر النساء . . .

كيف نمتنع عن الحياة!

لا نصنف بعضنا البعض فحسب بل نرضى بتصنيفنا .

نحن إناثٌ ميتات . . .

نخبئ في الخزانة أجمل أثوابنا استعدادًا لموعدٍ لن يأتي . . .

نُعيّن أجمل موسيقا كرنةِ هاتف لشخصٍ لن يتصل . . .

نضع أحمر شفاه يليق ببشرة صديقتنا . . .

لا نشتري كتابنا المفضل على أمل أن يُحضره أحد لنا كهدية . . .

لا نرقص إلا لنغيظ فتاة ما في إحدى الحفلات . . .

نمتنع عن التلذذ بطبق حلوى خوفًا من زيادة أوزاننا، فنلتهمه مع عقدةِ شعور بالذنب، ويزيد وزننا دون أن نستلذّ به!

أمام المرآة أدركتُ أنَّه آن الأوان لأنتقل من الموت إلى الحياة.

فجميعنا نُولد أمواتًا ثم نُدركُ الحياة في مرحلة ما . . .

فالحياة إرادةٌ وقرار .

_لقد كنتِ رائعة الجمال في طفولتكِ يا ورد ، لكن أتسمحين لي أن أقول لكِ أنَّ الحرب زادتك جمالًا .

قاطعني صوته، فالتفتُ إليه:

_لا يكن قرارك نهائيًا يا صديقي، فالسلام قادم.

_يبدو أنَّ خبير التجميل قام بمهمتِه على أفضل وجه، أظهرَ جمالكِ، وزاد من تفاؤلكِ.

_لقد انتعشَت روحي.

_نعم لقد عادت، لا يملك الجميع روحًا يا ورد، الروح هي نتيجة الوعي بالقلب والعقل والجسد معًا .

_أظنُّ أنَّه على عكس ما هو متعارف عليه، من يُهمل جسده ستتضاءل لديه الروح، فالجسد والروح ليسا خطان متوازيان إنما مُتلاحمان.

_بالطبع، فالجسد هو منزل الروح ولا يمكن للروح أن تكون عارية.

_كلما كرهتِ جسدكِ وأهملته وشعرتِ أنك تحملينه على ظهركِ كالإثم. . . . كلما كرهتِ روحك.

الروح ستبتعد عنكِ إنْ لم تشعر بمحبتكِ.

تذكري دومًا أنه كلما أوقفتِ عقلكِ عن العمل وجعلتِ منه صندوق استقبالٍ فقط، كلما تمَّ تصدير الروح إلى آفاقٍ مجهولة.

وكلما أقفلتِ على قلبكِ بالمفاتيح، وتركتِه حبيسًا خلف القضبان، كلما تسللتْ الروح هاربة.

الروح تحب الحرية، والقلب وُجد ليُمنح. . .لا كي يُحتفظ به.

_أشعر بحيوية مفرطة، يبدو أنه لم يفتني القطار بعد .

_أيُ قطار !

القطار ليس موجودٌ يا ورد إلا في خيال الذين لم يجدوا وجهة لهم فركبوا قطارًا يُوصلهم إلى حيث يذهب الجميع .

أولئكَ لن يُدركوا قط أنَّ القطار مُجرّد سجن، وأنَّه كان بوسعهم انتعال حذاءٍ رياضي وتسلُّق الجبال أو التنزه في الغابات أو الاستحمام بماء ينبوعٍ عذب ففي هذه الرحلة سيجدون أنفسهم، أما ركوب القطار سيزيد المسافة التي تفصلهم عن أنفسهم فحسب .

عليكِ أن تُغيّري نظام حياتكِ حقًا ، هذه الوجهة التي يتبعُها الجميع ليست وجهتكِ .

_ عليَ التفكير إذن بوجهة جديدة .

_بل عليكِ ألا تفكري، عندما لا تنهمكين بالتفكير ستِصلين إلى الوجهة الصحيحة، ستصفو روحكِ لتصبح متناغمةً مع الكون.

لا تفكري في المستقبل أو الماضي، عليكِ أن تشعري أن ميلادكِ وبعثكِ ملتحمين ليكون كل وقتٍ تعيشينه هو *الآن*، لا تفكري في الوقت أبدًا.

أتعلمين! في اللغة السنسكريتية* (الكالا) هي كلمة تعني الموت والوقت في آنٍ معًا.

_غريبٌ ذلكَ فالمعنيين متناقضين.

_بلْ متشابهين جدًا، فالموت مقرون بالوقت.

علينا أن نُدرك أن شرط الرحلة الأبدية هو الخوض في اللازمن، حينها ستكون هذه الرحلة حقيقية.

* السنسكريتية: لغة الأدب الهندي القديم.

فلتبدأي رحلتكِ الأبدية منذ هذه اللحظة، هذه اللحظة فقط عليها أن تعنيكِ.

إن فكرتِ في الماضي أو المستقبل ستقتلين لحظتكِ الراهنة، أما إنْ عِشتها فستبقى في روحكِ خالدة.

_كرم. . .ما الذي تعتقدُ أنَّه ينتظرنا عندما يتوقف الزمن؟

_لا يمكنني أن أجزم أنه سيتوقف أساسًا، قد تنتهي الحياة على سطح هذا الكوكب لكن من الممكن أن تستمرّ في مكانٍ آخر من هذا الكون الشاسع.

لكن بالحديث عن الموت يحضرني قول سقراط* عندما حُكِمَ عليه بالإعدام:

* سقراط: فيلسوف تم إعدامه عام ٣٩٩ ق.م لأنه كان يميل إلى مناقشة المعتقدات المُسلَم بها فحكِمَ عليه بتجرع السم بتهمة إنكاره آلهة الدولة (زيوس).
المصدر: تاريخ الفلسفة الغربية ج١ لبرتراند راسل.

من ظنَّ أنَّ الموت شرٌ فهو مخطئ لأنّ الموت إما أن يكون نُعاسًا بغير أحلام وعندئذ سيكون خيرًا لا شكَّ فيه أو سيكون انتقالًا للروح إلى عالمٍ آخر، فيكون هنالك فرصةٌ ليتاح له التحدث مع من سبقوه.

يمكنكِ القول أنَّ الموت بالنسبة لسقراط كان إما سريرٌ وثير أو كوبٌ من الشاي الدافئ في مقهى يجمعه بأورفيوس وهومر وموزيوس.

_لكن لمَ نومٌ بلا أحلام؟

_لأنَّ الأحلام هي محاولة من قبل عقلكِ الباطن لإيصال رسائل إليكِ، لا سيما تلك الأحلام التي لا تستطيعين التحكم بها أو التي تندمجين فيها بحيث تظنينها حقيقية.

التوقف عن الحُلم هو وعيٌ كامل بالذات، فعندما تفهمين نفسكِ لا يضطر عقلك الباطن لإيصال رسائله إليكِ على شكل حلم.

لذلك قال أنَ الموت نومٌ بلا أحلام.

_حسنا وما سرّ اعتقاده أنَّ الموتَ سيكون مريحًا إلى هذه الدرجة!

لم يفكر بالجحيم أو العذاب مطلقًا! على الرغم من أنَّ سبب إعدامه هو إنكاره للإله زيوس.

_ليس إنكاره للآلهة هو سبب حكمه بالإعدام فحسب بل لأنهم اعتبروه مخترعًا لآلهة جديدة.

حيث قال أنَ الشمس من صخر والقمر من تراب في زمن كان العلم فيه تعدٍ على سلطة الآلهة اللامتناهية.

_ ماذا عن الجحيم والنعيم؟

_أظنها حالة روحية تحلُّ فينا لا نحن من نَحلُّ فيها.

وربما هذا سبب اطمئنانه، أنه كان واثقًا بذلك.

_الأمر غامضٌ ومخيف.

_إياكِ والخوف فالخوف مقترن دومًا بالكره والكره هو بضاعة الجحيم.

_ أنا أخاف فقط لأنّ الأمر مجهولٌ بالنسبة إليَّ.

_نحن نخاف أمرًا ما كتعبيرٍ عن رغبتنا الدفينة بعدم وجوده، وهذه الرغبة لن تقترن بالمحبة حتمًا .

امتلئي بالمحبة حينها ستكونين مُستعدة لمواجهة المجهول

إياكِ أن تتأثري بموجةِ الخوف والكُره المحيطة بكِ

التي تمّ صنعها لإغراقنا .

وبالمناسبة أنتِ من يجب أن تعلميني الشجاعة فأنتِ حواء لا أنا . . .عليكِ أن تكوني شجاعةً مثلها .

_حواء ؟

_ نعم حواء . . .حواء شجاعة لأنها التي أكلت من شجرة المعرفة فامتلكَتْ الوعي، على عكس آدم الذي كان مترددًا فبقيت التفاحة عالقة في حلقه لأنه كان منقسمًا على ذاته، جزءٌ منه يريد وجزءٌ لا يريد . . . .

لولا حواء لما كنا أنا وأنتِ هنا الآن.

_لكننا بشجاعتها خرجنا من الجنة!

_نحن لم نخرج لأننا لم نكن، لكن بخروجهما تكونَّا . . .بخروجهما انتقلنا من حيّز العدم إلى الوجود .

أكنتِ تفضلين أن تبقي في العدم؟

_ لم أفكر بهذه الطريقة يومًا !

_كنتِ تفكرين بالأمر على أنه خطيئةٌ دومًا .

_نعم. . .على الرغم من أنني بعد أن قرأت أسطورة الإينوما إيليش البابلية وجدتُ تفسيرًا آخر لما قد حصل.

_ما هو؟

_إنَّ تصوير آدم وحواء في جنة عدن ما هو إلا انعكاسٌ للمرحلة الاقتصادية التي كان يعيشها الإنسان في تلك الحقبة عندما كان مُلتقطاً للثمار، كانت حياته مُريحة وسلسة ولا اكتظاظ سكاني يهدّد الموارد بالشُّح أو النقصان.

أما السقوط الناتج عن الأكل من شجرة المعرفة فهو إيحاءٌ لارتفاع الإدراك والوعي لدى الإنسان الذي تحوّل من شخصٍ كليل الذهن مغمض العينين إلى شخصٍ مكشوف البصيرة.

أما مباشرة الفعل الجنسي فترمز إلى الخلق الاجتماعي وزيادة أعداد البشر على الأرض وتوزعهم في شعوب وقبائل ونزوعهم إلى الرعي والزراعة اللذان يحتاجان لجهدٍ أكبر بكثير من التقاط الثمار.

_إن رغبة الإنسان بالمعرفة أهم من الخلود في الجنان.

يبدو أنني سأستعير الكتاب الذي يتحدث عن الإينوما إيليش* منكِ.

_بالطبع، لا مشكلة.

_لكنني ومع ذلك لا زلتُ مُصرًا على أنّ حواء شجاعة.

كوني شجاعةً مثلها وواجهي الأمور كما هي.

_لكنَّ الشجاعة قد تكون سلبية أحيانًا.

_أبدًا، فعلى الأقل لن تكوني منقسمةً على ذاتكِ، الشجاعة تعني التغلب على الازدواجية.

فحتى لو اقترفتِ خطأً ما . . .يكفيكِ شرفًا أنكِ تعلمتِ من تجربتكِ، الفضيلة ليست في عدم ارتكاب الأخطاء بل بالقناعة التامة بعدم الجدوى من ارتكابها.

* الاينوما ايليش أسطورة الخلق البابلية، يمكن الاطلاع عليها في كتاب مغامرة العقل الأولى لفراس السواح.

الفضيلة هي أَلَّا تكوني مزدوجة. . . تُفكرين بأمرٍ ما وتقومينَ بنقيضه.

_ أنتَ تخبرني بأَنَّه عليَ ارتكاب الأخطاء ؟

_بل عليكِ خوض التجارب لتحديد الخطأ من الصواب، طالما لديكِ قناعة بأنَّ الأمر خاطئ إياكِ وارتكابه، لكن قناعاتكِ هذه هل هي قناعاتٌ خاصة أم مستعارة؟ !

هنا يكمن الفرق. . . .

الصواب إن كان مستعارًا لا يكون صوابًا، أو على الأقل يفقد قيمته.

_أتقول أَنَّه عليَ نسف كل النتاج الإنساني لأختبر كل أمرٍ بذاتي !

لم أقتنع بكلامك، طالما أنّ أمرًا ما لم يكن ملائمًا لغيري لا أظن أنه ملائمٌ لي.

_وهل أنتِ غيركِ؟

_لستُ غيري، لكن طالما نحن خاضعين لذات الشروط والظروف فستكون النتيجة التي قد أصل إليه أنا مماثلة لما قد وصل إليه الآخرون من قبلي، فِلمَ أثقل كاهلي بتجربةٍ أعلم نتائجها !

_هل الجميع خاضعون لذات الظروف؟

ما هو صواب في حيزٍ زمانيّ أو مكانيّ محدد قد لا يكون كذلك في حيزٍ آخر.

_كلامكَ قد يكون مقنعًا في نواحٍ محددة ولكن ليس في جميع المجالات.

_إنَّه من الأفضل أن تعيشي حياتكِ في الأخطاء من أن تكوني على صواب. . .صوابٌ يحدده لكِ الآخرون، فهذا الصواب لم تختاريه بإرادتكِ حتى.

_لكن من الجيد أن يتقبل الإنسان نصيحة من يفوقه خبرةً.

_أسوأ ما قد اخترعه الإنسان هو النصيحة المجانية التي يمنحها للآخرين دون أن يطلبوا مساعدتَه، فهو لم يخترعها لإفادة الآخر بل ليُقنع نفسه أنه أكثر قُدسيةً من الآخرين فحسب.

إن الإنسان بطبيعته يحبُّ القيادة، والنصيحة هي القناع الأمثل ليمارس مواهبه في السيطرة.

إنّ النصيحة يا صديقتي قد تكون صحيحةً، نعم... لكن وفقًا للشخص ذاته لا أكثر، وقد تكون خاطئةً بالنسبة لآخر.

_ ربما.

_نحن في ضلال، نحن أبعد ما نكون عن الحقيقة لأنَّ هنالك أشخاص في كل زمان ومكان يدَّعون معرفتهم للحقيقة، ويلقنوها للأجيال المتعاقبة.

نحن وَرَثةُ الكذب...لا الحقيقة.

حسنًا . . .

ما رأيكِ بتناول فطيرة يقطين لنكتسب قليلًا من الطاقة، أرغب في أن نعود إلى المنزل مشيًا على الأقدام لنكمل حديثنا .

_لقد قدّمتَ عرضًا مغريًا .

_ الفطيرة مغرية يا صديقتي لا يستطيع أحدٌ مقاومتها .

_لكنني لم أقصد فطيرة اليقطين، العرض المغري هو أننا سنكمل حديثنا .

ابتاعَ قطعتين، وأعطاني واحدة:

_سعيدٌ أنكِ مستمتعةٌ بالحديث .

_أتعلم كرم، في كلِّ مرةٍ أشعر معكَ أنني أقابل نفسي للمرة الأولى .

_هذا طبيعي يا صديقتي، فنحن نتعرَّف على أنفسنا من خلال الآخر . . .لكن بالطبع ليس أيّ (آخر) .

بإمكانك القول أنني (الكاتالوج) الخاص بك.

_ لكنني لستُ آلة!

_الكاتالوج البشري مختلف، هو يتيح لكِ الفرصة لفهم ذاتكِ كي تستطيعي التعامل معها بشكل أفضل.

ربما أسأتُ التعبير...

حسنًا ...أنا بمثابة شريط الترجمة الذي يُعرض أسفل الشاشة.

_هههههه وأنا المتفرجة الجالسة على الكراسي المخملية القابلة للطي؟

_لستِ المتفرجة فحسب بل أنتِ الفيلم وأبطاله أيضًا ...وأنا حلقة الوصل بينكما.

_من ذا الذي قال أنَّ (الجحيم هو الآخر)، لا بدَّ أنه مخطئ...عليه أن يقابلكَ فحسب ليتأكد من ذلك.

_الآخر ليس جنةً ولا نارًا.

إياكِ أن تكوني تابعةً لأحد، فتتقلبي وفقًا لنسائمه أو لهيبه، حتى لو كنتُ أنا .

يمكننا استبدال عبارة الجحيم هو الآخر ب (الفردوس هو الأنا) .

_آه بربكَ لا تُعِدني إلى دائرة الأنا، لقد تهتُ بها .

كرم. . . . بعد شارعين من هنا، هناك متجرٌ لبيع الحيوانات الأليفة، ما رأيك أن نلقي نظرة.

_يبدو أنكِ تبحثين عن فئرانكِ الأربعة.

_فئراني الأربعة؟

_اليقطين بين يديكِ، لن تحتاجي الآن إلا لأربعة فئران لتلتقي بأميركِ.

_هههههه. . .نحتاج إلى الساحرة الطيبة إذن.

و (آبرا كادا برا) . . . .

هوب. . . . عربة وجياد .

رفعتَ أنفك للأعلى. . .

_أو لا تحتاجين إليها، قد يكون الأمير قريبًا جدًا بحيث لا تحتاجين عربة أو ميكروباص حتى.

إحم إحم. . .

_هههههه.

_أترغبين باقتناءِ حيوانٍ أليف حقًا ؟

_أريد ذلك، لكنني متأكدة أنّ أمي ستطردني وإياه لِنبيتَ على الرصيف.

_منذ فترة قصيرة قرأتُ مقالًا عن استخدام الحيوانات في البرامج العلاجية النفسية والجسدية بالنسبة للإنسان خاصةً الكلاب والقطط.

ببساطة يمكنكِ احتضان كتلةٍ ناعمة من الفرو لتنعمي بنومٍ هادئ ولتتخلصي من الأرق.

_هل من وسيلةٍ لإقناع أمي بذلك!

_أخبريها أن تربيتكِ قطة في المنزل سينظّم ضغط دمها المرتفع.

_أنا أرفع ضغط دمها والقطة تُخفضه.

_ سيكون عرضاً مغريًا بالنسبة لها.

لا تنسي أن تخبريها أنها ستعالج أرقكِ أيضاً وبذلك ستتخلص من ضجيجك الليلي.

_وصلنا...

أشرتَ إلى قفصٍ يتوسطه دولاب صغير، يختبئ خلفه هامستر يقضمُ بذور عباد الشمس.

_ما رأيكِ به؟ أظن أنَّ والدتكِ لن تمانع وجوده طالما بقي في قفصه.

_كم هو ظريف.

_ماذا كنتِ لتسميه؟

_همتارو.

_أرى أنه يشبه (أوكستارد) أكثر، انظري إلى بذرة دوّار الشمس الملتصقة بيده.

_أوكستارد كان رماديًا، هذا بنيّ وأبيض.

_ابحثي جيدًا في الأقفاص، علَّكِ تجدين (بيجو) بشرائطها الزرقاء.

_هههههه... انظر إلى هذين السنجابين كيف يتشقلبان داخل القفص... دومًا ما تدعوني بالسنجابة، هل أنا شقية مثلهما!

_لم أكن أعلم أن السناجب شقية ومرحة، لكنكِ كذلك خارج فترات اكتئابكِ بالطبع.

_لا تهزأ بي.

رأيتُ قوائم صغيرة تخرج من بين قضبان أحد الأقفاص كأَنَّها تلوح لي. . .كان جروًا أسودًا لم أرَ في حياتي أجمل منه، نظر إليَ بعينيه البريئتين فداعبتُ رأسه.

_كرم. . . . أريده.

_إنه يهزُّ ذيله، أظنهُ سعيدٌ بالتعرف إليكِ.

ورد انظري إلى هذه الأرانب.

_تبدو ككراتِ فروٍ صغيرة، انظر إلى أنوفها كيف تتحرك.

_هيا بنا، أخشى لو بقينا أكثر أن تحملي كل الأقفاص وتتوجهي بها إلى المنزل.

_انتظر قليلًا، أريد أن أرى الببغاء عن قرب.

سحبتني من يدي . . .

_في وقتٍ لاحق، ألا يكفيكِ العدد الهائل من الببغاوات البشرية التي تحيط بكِ.

_لكنها ليست ملونة أو جذابة.

_كيف ستكملين ليلتك؟

_ممم...سآخذ حمامًا ساخنًا وسأجرّب المستحضرات التي ابتعناها معا، وسأسترخي تمامًا.

كرم.... أنا مُمتنة لوجودك.

_لا تُكرري هذه الكلمات مرة أخرى.... هيا اصعدي إلى المنزل، لن أتحرّك قبل أن تلوحي لي من النافذة، ولا تنسي موعدنا غدًا.

_لن أتأخر...ليلة سعيدة.

مشوار جيناع الدني . . . . مشوار

على ألحان الموسيقا الكلاسيكية بدأتْ رحلتنا . . .

موسيقا من ذلك النوع الذي يرتطمُ بهدوءٍ عنيفٍ بقفصكَ الصدري، تشعرُ أنكَ تستنشقهُ ملء رئتيكَ، وكأَّنكَ داخل نفقٍ عميقٍ ينتهي بالوصول إلى ذاتكَ.

هذه الموسيقا تنطلقُ كتعويذةٍ سحرية وتسمحُ للجسد والآلة الموسيقية أن يلتحما، ليشعر الإنسان أَّنه بيانو. . . . أَّنه كمان، وأنَّ اللحن ليس صادرٌ إلا عن مفاتيحه وأوتاره.

_أراكِ مندمجةً بالسمفونية.

_رائعة جدًا.

يومًا ما سأموتُ غرقًا بالموسيقا، سأمتلأُ نَغَمًا ثم سأطفو.

_سيكون هذا الموت بمثابةِ حياة.

ألقيتُ نظرةً عبر الزجاج، كانت الغيوم تتراكض كأنَّها متأخرة على موعدٍ ما، لتلثم الشمس الخجولة بسرعة وتهرب.

_لقد وصلنا.

ترجَّلنا من السيارة، ووطأنا على أوراق الشجر التي افترشَتْ الأرض.

كانت لا تزال بعضها غضَّة خضراء، أما الصفراء فتقرمشَتْ تحت أقدامنا.

_هل من وجهةٍ مُحدَّدة سنذهب إليها ؟

_نعم.

وأشار إلى كتلةٍ رخامية قريبة، كانت تبدو ضبابية المعالم وتزدادُ وضوحًا كلما اقتربنا أكثر.

كان تمثالًا من الرُخام الأبيض العتيق في وسط ساحةٍ محاطة بالأشجار العارية.

يُصوِّر فتاةً دقيقة الملامح بعينين واسعتين تلتقيان بعينيّ شابٍ يرفع خصل شعرها المموَّج عن جبهتها ويتغطى قسمه السفليّ بثوبها المتطاير برِقة.

قمتُ بدورةٍ حول هذه المنحوتة الرائعة، كان ينبثقُ من كتفِ الفتاة الأيسر جناحٌ أبيض ضخم يتماهى مع الدانتيل الحجري لثوبها المُنسدِل خلفها، ويناظره جناحٌ ينبثقُ من الكتف الأيمن للشاب.

وقد خُطَّتْ أسفل التمثال حروفٌ متراصة ودقيقة:

أتعتقدُ أنك حُر؟

أشدُّ القيود وأقساها تلك التي تأتي على هيئة بشر.

تحرّر من قيودكَ البشرية ثم أخبرني بعد ذلك...

هل أنت حُر؟

فمن يُحبك من المحال أن يكون قيدًا لك.

فالعناقُ حُرّية. . . . والقبلةُ ثورة

ومن أحبكَ ثار بكَ ولكَ. . . . وتحرَّرَ منكَ وفيك. . .

_هل من المعقول أنني أقطن على بُعدِ كيلومترات قليلة من هنا ولا أدري شيئًا عن هذا التمثال!

أهو أثريّ؟

_لا أحد يعلم شيئًا عنه، لم يكُن له أيُّ وجود منذ فترة زمنية قصيرة. . .

أما سكان المنطقة فيتناقلون عنه قصصًا معظمها من نسج خيالهم.

_وما الحقيقة؟

_ما من حقيقة أو منطق يُفسران وجوده، قد يكون نحتَهُ أحدهم هنا .

لكن يقال أنَّه يُمثل الإدراك الحقيقي للحب، وأنَّ كل اثنين يصلان إلى أسمى مراتب العشق ينبتُ لكلٍّ منهما جناح ليطيرا بشكل متناغم كجسدٍ واحد وصولًا إلى مكانٍ مجهول، ولحظة انتفاض جناحيهما تنزفُ خطاياهما رُخامًا أبيضًا كرمزٍ لانطلاقهما من هذا المكان.

لامستُ الجناحين. . .

_تفسيرٌ رومانتيكي لكنه ليس حقيقي بالطبع، لكُنتَ وجدتَ ألوفًا مؤلفة من هذه التماثيل في كل مكان من هذا العالم. . . . لا بدَّ أن شخصًا ما قام بنحته.

_على الرغم من أن التفسير رمزيٌ يا ورد، إلا أنه ولو كان حقيقيًا ستكون هذه التماثيل نادرة، فليس كل شاب وفتاة خفق قلبهما وتبادلا بضع كلمات حب قد وصلا إليه حقًا .

كل ما حولنا يجعلنا يومًا بعد يوم منيعين ضدَّ الحب، فما من عاشقين حقيقيين يجلسان على طاولةٍ للمفاوضات ليرسما حلقاتٍ وقيودٍ حول أعناق بعضهما البعض.

الحبُّ اليوم أصبح مشروطًا !

إن التزمتِ بالقيود أغرقتكِ حبًا وحنانًا، وإن انتزعتِها أدرتُ قلبي عنكِ وأهملتكِ.

هذا الإهمال عادةً ما يكون ابتزازاً لإضعاف الآخر كي يعود إلينا مثخنًا بوحدته وجراحه ليحتمي بجناحنا .

يَضعَفُ الجناح الآخر، فيتناسى المحبان أنه من المستحيل لجناحٍ واحدٍ أن يطير، وتتحول البدايات السعيدة إلى نهاياتٍ كئيبةٍ حزينة، وكلما زاد عدد شروط البقاء . . . .كلما كانت النهايات أشدّ مأساوية.

وغالبًا ما يفرضُ أحد الطرفين سلاسل جديدةً على الآخر بعد أن يُكبلَّه هذا الآخر بقيدٍ ثقيل، وكل هذا يحدث ضمن مراسمٍ يوهمان

أنفسهما أنها مراسمٌ عشقية، فبدل أن يقوما بتحريرِ بعضهما يتنافسان على تكبيل بعضهما بعضاً .

_الغيرة.

ألا يقولون أنَّ الغيرة دخانُ الحب؟

_على العكس تمامًا .

الغيرة تدلُّ على واحد من أمرين، إما عدم ثقة بالنفس أو عدم ثقة بالشريك، وبغياب الثقة. . . يغيب الحب.

_لكنها قد تكون ناجمةً عن عدم ثقة بالآخرين المحيطين بالشريك أيضاً .

_هل من حقي إن أحببت أن أعزلَ حبيبتي بحجة أنني أخشى عليها ؟ !

الأمر مشابهٌ لحبسي عصفورًا ما في قفصٍ بحجة أنني خائفٌ أن يلتهمه قطٌ ما .

والحقيقة أنني لستُ خائفًا عليه بل خائفٌ ألا أتمتع به طيلة الوقت .

الحقيقة أنني لا أحبه . . . . بل أحبُّ مُتعتي به .

إن أحببتُه لن أحرمَ جناحيه من الطيران . . . . لن أحرمه أن يندمج مع زُرقة السماء .

وسيعود العصفور يومًا لينقر زجاج نافذتي، ليُزقزق أغنية حُب لا أغنية عبودية .

هذا هو الفرق بين الحب والتملُّك .

الغيرة شعورٌ ناتج عن رغبة بالتملُّك، والتملُّك من المحال أن يكون حُبًا .

كنا قد ابتعدنا عن التمثال فاستدرتُ لألقي نظرةً أخيرة عليه، فبدا لي الجناحين أكثر اتساعًا وأكبر حجمًا .

_لم أتوقع أن هنالك شابٌ يفكر هكذا !

_لماذا !

_ظننتكَ من أولئك الذين يَدْعُونَ لأنْ تكون المرأة ملكةً في بيتها .

_هذه الكلمات البراقة المزيفة مجرد ستارٍ لتغطية نوايا الاحتكار والتملُك .

فهؤلاء الذين ينادون بأن تكون المرأة ملكةً في بيتها هم ذاتهم لا يكترثون إلى مئات آلاف النسوة اللاتي يستيقظنَ صباحًا وينطلقنَ إلى الحقول لزرع قمحٍ ينتهي بأرغفةٍ ساخنة على موائدهم، أو لغرسِ أشجارٍ يُصنع منها أوراق يكتبون عليها بنودًا مطالبين من خلالها بعودةِ المرأة إلى مملكتها المزعومة .

اقتربنا أكثر من نبع ماءٍ يخفق بعذوبة.

_أجدُ أنكَ قائدٌ للحركة النسوية.

_ليس الأمر كذلك، فالجمعيات والحركات النسوية ليست أفضل بكثير من القيم الذكورية المتأصلة في مجتمعنا.

هي مجرد ترسيخٍ للخلاف لا أكثر.

لا أراهما سوى كفريقين مُتخاصمين يلعبان ضد بعضهما البعض وهنا تكمُن المشكلة.

_كيف سينتهي الخلاف؟

_عندما يدرك الطرفين أنهما ليسا خصمين، بل مُكملين لبعضهما البعض، وأنهما مُكرَّسَين لإعمار هذه الأرض معًا.

ما رأيكِ أنتِ؟

_أظن أنَّ النسوية انبثقت كردَّةِ فعل على ظلم النساء، لكن تمّ تشويهها أو حرف مسارها ليس من قبل الذكوريين فحسب إنما من قبل النسويين أيضاً .

لأُصدقكَ القول، لا أعتقد أن الجمعيات هي التي تُحرِّر المرأة، فكل امرأة مسؤولة عن تحرير نفسها بنفسها .

هنالك العديد من النسوة سعيدات بعزلهنّ أو بحرمانهنّ من العمل والتعليم، بل ويؤمنَّ إيماناً مطلقاً أنَّ الله خلقهنّ أخفض شأناً من الرجل وأنهنَّ يتمتعن بقدراتٍ أقل.

فكيف بإمكانكَ أن تقنعهنّ بعكس ذلك! ؟

_هنَّ لسنَ سعيدات، لكن الرضوخ للتأثيرات الخارجية هو الحلُّ الوحيد المتاح لهنَّ.

أما تمثيل الشعور بالرضا والسعادة وحتى الاستشراس في الدفاع عن هذه القيود فردُّة فعلٍ طبيعية لإقناع أنفسهنّ أنهنّ راضيات وقانعات حقًا .

هنَّ لا يدافعنّ عن هذه الأفكار بقوة لإقناع الآخرين بها بل لإقناع أنفسهنَّ بذلك .

_نحن قومٌ عجزنا عن التحرر من سلاسلنا وقيودنا . . .فعبدناها !

_تمامًا ، لكن إن وجهنا لهنَّ اللوم سنظلمهنَّ أكثر وسنزيد من عذابهنَّ .

_ الأمر لا يحتاج حركاتٍ أو ثوراتٍ أو جمعيات .

يحتاج وعيًا من الشخص ذاته فحسب .

وعيٌ بالحقوق والواجبات .

كم أكره هذا الصراع المفتَعَل بين الرجل والمرأة !

_كما تقول أوزولا شوي: نحنُ لا نأتي إلى هذا العالم صبيانًا أو بناتًا لكن المجتمع هو من يجعلنا كذلك.

الفتاة لا تُخلَق مولعةً باللون الزهري أو الألعاب الأنثوية، وكذلك الصبي لا يُخلق مولعًا باللون الأزرق أو الألعاب الذكورية.

بل نحن من نضعهم في قالب محدد ونزرع داخلهم ذلك دون أن نشعر وبدءًا من الأيام الأولى.

نحن من نجعلهم أكثر رقةً أو قسوة، أكثر ترتيبًا أو فوضوية حفاظًا على الصورة النمطية للذكر والأنثى.

حتى القوة الجسدية ليست سببًا لتوزيع المهام وإنما نتيجة، ففي المجتمع المتريركي* اتخذَتْ النساء لأنفسهنَّ دورًا يعتبر لدينا ذكريًا وأعطينَ الرجال دورًا أنثويًا فكان الرجال سلبيين، عاطفيين ومِغناجين

* المجتمع الأمومي المصدر: أصل الفروق بين الجنسين لأوزولا شوي.

ومسؤولين عن البيت والأطفال أما النساء فاعلاتٍ، عدوانيات ومسؤولات عن القتال.

_ إذن نحن نزرع الفروقات ونعززها ثم نختلف من أجلها فيما بعد !

_الأمر مضحك أليس كذلك !

_مضحك ومبكٍ في آنٍ واحد .

نظر إلى السماء وقال:

_يفضَّل أن نختار بقعةً محمية فقد تمطر في أي لحظة.

وضع الحقيبة داخل تجويف صخري وجمع أغصاناً صغيرة لإشعال النار التي بدأت بالتوهج خلال لحظات.

ملأ إبريق الشاي من ماء النبع ثم وضعه على الأغصان المشتعلة.

_لا أظنها ستُمطر، فالجو رائع.

ما رأيكَ أن نذهب إلى الشام القديمة بعد أن ننهي كأس الشاي.

_أَلم تُحبي المكان؟

_بل عشقتهُ.

_سنذهب إلى أيِّ مكانٍ تريدينه، طالما أنكِ سعيدة فلا يَهُم المكان.

_لا أعلم ماهية شعوري، لكنه مختلطٌ بتأنيب الضمير.

_تأنيب الضمير؟

_نعم.

_تجاه من؟

_أنا هنا أستمتع بصحبتكَ وبجمال الطبيعة وبالدفء وبكأس الشاي، بينما هنالك طفلٌ يحبو الآن داخل علبة كرتونٍ في مُخيم، أو أمّ لا تملكُ ثمن زجاجة حليبٍ في المناطق المحاصرة، أو فتياتٍ صغيرات يَحملن أوانٍ من الماء يزيدُ وزنها عن رُبع وزنهنَّ، أو أبٍّ هشَّمت بيته قذيفة

فاستبدل الجدران الإسمنتية بقطعٍ بلاستكية أو قماشية لا تمنع عن أطفالِه حرًا ولا بردًا .

أَمِن العدل أن أشعر بالسعادة؟ !

_الحياة مستمرة يا ورد وشعورك لن يغير أي شيء .

_متى ستنتهي هذه الحرب؟ متى سيمدُّون لنا يد المساعدة لتنتهي !

_ستنتهي عندما نستبدل عبارة (متى سيمدُّون لنا يدَ المساعدة) ب (متى سنمدُّ نحن يدَ المساعدة) .

لماذا نُسقِط المسؤولية عن عاتقنا، ثم نغضب لأنَّ الآخرين لم يقوموا بواجباتٍ هي واجباتنا نحن !

ستنتهي الحرب عندما يحبُّ كلُّ شخصٍ شريكه في الوطن قبل أن يستجوبه عن دينه أو طائفته أو انتمائه السياسي أو القومي .

ستنتهي الحرب عندما يُدرك كل شخصٍ منا أنه مسؤول عن ترميم الخراب، فكل إنسانٍ يستطيع تقديم المساعدة على طريقته وبما يتوافق مع ظروفه ومؤهلاته، وهنالك عشراتُ المؤسسات والجمعيات التي تمَّ تأسيسها لهذا الغرض كجمعيات التعليم مثلًا، فتعليمُ طفلٍ فقيرٍ لن يقلَّ أهميةً عن إطعامه أو كِسوته.

قدّمي ما تستطيعين تقديمه، حينها سيختفي تأنيب الضمير وستستشعرين السعادة.

_هل استشعارها بهذه البساطة؟

_نعم، لكن قدّمي ما بوسعك.

_ما هي السعادة؟

_السعادةُ هي ابتسامةُ طفلٍ يتيمٍ أمسكتِه من يده وشاركتِه وجبةً في مطعم، هي تعابيرهُ البريئة بالتلذذ بنكهةٍ جديدة على حليماته الحزينة.

السعادة هي دعاء سيدةٍ عجوز تضعين على كتفيها شالاً من الصوف بعد أن تخبريها أنه يليقُ بها .

السعادة هي الغيمة التي تحجبُ الشمس الحارقة عنكِ ريثما تصلين إلى بيتكِ.

هي قطعةُ الحلوى الأخيرة الشهية التي تنتظركِ في الثلاجة.

هي الزهرةُ الزرقاءُ الوحيدة التي تُطِلُّ عليكِ بين كومة من الأزهار البيضاء .

هي الأميال التي تجرينها كل يوم للحفاظ على صحتكِ.

هي بنطالكِ القديم المفضل الذي استطعتِ ارتداءَهُ مرة أخرى بعد أن خسرتِ قليلًا من وزنكِ.

هي بريقُ عينيكِ وأنت تشاهدين دمية (سالي) ونظارة (كونان) ونمش (ساندي بل) وضفائر (جودي آبوت) .

هي اختفاء البثرة الأخيرة من جبهتكِ قبل حضور مناسبتكِ المميزة.

هي تلك الرسالة التي تتركها لكِ أمكِ لتدُلكِ على مكان وجبتكِ وتنهيها بعبارة (مع محبتي) فتكون ألذّ من الوجبة ذاتها.

هي ضحكةٌ منعشة لفتاةٍ صغيرة يحملها والدها في باصِ نقلٍ داخلي، تلوّح لكِ بيدها قبل أن تغادر وتضع في يدكِ دبوس شعرها كذكرى.

هي الفستان الذي يدورُ حولكِ ويرتفع عندما تتحركين والذي ابتعتِه بنصف القيمة.

قام بإلقاء الماء على النار المشتعلة لإخمادها، ثم ضحك وأضاف:

السعادة هي تلك القذيفة التي وقعَت في شارعٍ ولم تنفجر.

هيا بنا إلى الشام القديمة ....

شآم أنت المجد . . .أنتِ المجد لم يغبِ

دمشق.

مدينةٌ بنكهةِ أُنثى . . .

يسيلُ بردى شهيًا من شفتيها . . .

وليس بوسع الغوطة إلا أن تكون حزامًا على خصرها المجنون.

هي المدينة الوحيدة التي لها عُشّاق يُغنجونها (شام).

أسمعتَ يومًا بمدينةٍ لها اسم (دَلَع) !

شامُ ما أن تسمع اسم دَلَعِها حتى ترتدي ياسمينها وجُورِيّها الأحمر

وتُجالس عُشّاقها على كراسي الخيزران. . .

تُقبِّلُ أُحجار النرد . . . . من أجل حظِّهم. . .

وتُغطس قدميها في ماء النوافير المختلط بماء الورد . . .

تفكُّ ضفائرها وتتوسَّد صوت الحكواتي في مقهى (النوفرة)، تضع طربوشه الأحمر على رأسها وتعبث بمسبحته، وتأكل بقلاوة الفستق وهي تستمع لقصة عنترة. . .

من شام تفوح رائحةُ القهوة والتمرِّ الهندي والمِسك فيبدأ الصباح. . . .

إن سألتني إلى أين نحن ذاهِبَيْن، سأجيبكَ. . .

إلى الشام القديمة. . .

لكن الشام لم تكن يومًا جديدةً أو قديمة. . . . بل صبية سرمدية عذراء. . .أنجبتْ عُشاقها، فكوَّنوها . . .

عند مدخل سوق الحميدية يختلط ظلُّ دمشقَ بملامحكِ فتصبحين مثلها يا ورد صبية سرمدية. . .

_أخيرًا وجدتُ طريقة لأرتشف بها الموسيقا . . .

قلتِ ذلك وأشرتِ بعينيكِ إلى رجلٍ مُسنٍ يجلس أمام دكانه الممتلئ بعبقٍ شرقي.

يضع نظارته ويُمسك بيده حفَّارا كهربائيا ذو رأسٍ دقيق ويحفر به على طبقٍ نحاسي.

دار نقاشٌ بينكِ وبينه، وانشغلتُ أنا بتفحُص حبَّات الأرُّز التي نُقِشَت عليها حروف العشاق وأسماء المُحبين. . .

في أيِّ مكان من هذا العالم لا يكون الأرُّز إلا طبقًا لإسكات الجوع. . .أما في دمشق حبة أرُّزٍ واحدة هي طبق عشقٍ لشخصين. سواء كانت قلادةً تتوسَّد صدر عاشق أو حمَّالةٌ لمفاتيح منزله وقلبه.

_ كيف سترتشفين الموسيقا آنسة ورد ؟

_سأحفرُ على فنجانٍ مقطعًا من أغنية، وعلى الطبق علاماتٍ موسيقية.

_ أما زال لديكِ مكان في منزلكِ يتسعُ لفنجانٍ آخر !

_دومًا هنالك مكان لفنجانٍ جديد .

_ما هي الأغنية التي ستنقشينها على الفنجان؟

_ساعدني لأقرر .

_عليكِ أن تختاري أغنيةً تُحبينها فحسب .

_لقد احترتُ حقًا .

_ما رأيكِ ب(شآم أنتِ المجد . . . أنتِ المجدُ لم يغبِ) ؟

هكذا بإمكانكِ ارتشاف قهوتكِ وصوت فيروز بحةً بحة وبذات الوقت ستصبح شام داخلكِ .

_رائع، رغم أنني كنتُ أفكر بمقطعٍ أكثر رومنسية .

(وتشرب من فنجانك . . .واشرب من عينيك) .

محظوظٌ ذلك الذي سيشربُ من عينيكِ يا ورد . . .

وكم أتمنى أن أكون أنا . . .

وكم أظلم نفسي في انتظار الانتظار. . . وفي الكذب على ذاتي، وفي تجاهل ذلك الإحساس الذي يسبقُ الحب بمترٍ وقبلة. . .

عندما أنتظركِ كي تكلميني لأن الكبرياء قد قتل صوتي.

عندما أنتظر أن تتلامس أيدينا عن طريق صدفة أخترعها لأنني أخافُ أن أبقى دونكِ بلا أصابع.

عندما أخشى على نفسي منكِ. . .وأخشى عليكِ مني. . .

عندما أتأمل صوركِ وأنا أشرب قهوتي في الصباح وقبل النوم كجرعةِ دواء لعينيَّ من قُبح هذا العالم.

ورغم كل ذلك ألعبُ معكِ لعبة شدّ الحبل السخيفة. . . أبتعد لتقتربي أنتِ. . .

كل هذا لأُنكِر أنني غارقٌ في الحب، بل على مسافة منكِ أقرب من عناقٍ. . . . وقُبلة!

ذلك الإحساس مهما أنكرتُه هو حُب قاب قوسين أو أعلى.

_كرم؟

_نعم.

_هل أنتَ معي؟

_نعم.

_إنَّ الفنجان سيكون جاهزًا بعد ساعة، ريثما ينشف حِبره.

_حسنا بإمكاننا قضاء بعض الوقت حتى يُصبح جاهزًا.

_أين كنت شاردًا؟

_في موضوع ما، سأخبركِ به لاحقًا.

_هنيئًا لمن سرقَتْ عقلك.

_لماذا تجزمين بأنَّ هناك أنثى في الموضوع.

_أشُم رائحة عطرها فحسب.

_رائحة عطرها إذن.

_نعم.

_وماذا تشبه؟

_تشبه رائحتكَ، لكن بنسخةٍ أنثوية.

_هههههه حسنًا يا شقية سنتحدث مساء في هذا الأمر.

_أو الآن، ليس لدينا شيء يمنعنا من ذلك.

هذا السوق على بساطته ليس إلا منطقةً سحريةً تصبحين فيه شهيةً...قويةً...طفلةً...وأنثى... تمارسين جنونك العاري كدمشق.

كيف لا أحبكِ وأنتِ تشبهينَ معشوقتي بطفولتها وأنوثتها . . .

كيف لا أحبكِ وأنتِ تقفين أمام (أكياس السعادة كما تسمينها)،
وأراكِ كطفلةٍ تتسعُ عيناها وتتحولان إلى قلبين ينبضان عشقًا،
ويختلطان بزرقة اللوز المُلبس.

كيف لا أحبكِ وأنتِ تخلعينَ حذاءَكِ فيلتحم جلدكِ بجلدِ دمشق دون أن تكترثي لنظراتِ مَنْ حولكِ أو لظنّهم أنكِ لا تراعين قواعد اللباقة العامة.

كيف لا أحبكِ وأنت تتفقدين بيديكِ البابونج والزهور المجففة وإكليل الجبل وحبَّات اليانسون كأنكِ تحادثينها بشيفرة سرية.

كيف لا أحبكِ وأنتِ تحرِّكين أنفكِ كأرنب صغير لتمتلئي برائحة حب الهال والزعتر.

كيف لا أحبكِ وأنتِ تعاملين ما حولكِ كلوحةٍ بيضاء وتستخدمين إصبعكِ كريشةٍ ترسم قلوبًا شفافة في كل مكان، كم أحبكِ وأنت

ترسمينها على الطاولة التي تجلسين أمامها أو على ركبتكِ المثنية أو حتى في الهواء .

وأحاول النفاذ إلى داخل عينيكِ، علّي أسبر أعماق مِحبَرَة روحكِ.

كيف لا أحبكِ وأحبُّ هذا الكون الذي يصبح لولبيًا كخصلة شعركِ التي تلفينها حول إصبعكِ.

بربكِ. . .أخبريني كيف لا أعشقُ تلك القطرة الهاربة من كأسكِ وجوفكِ على حدٍّ سواء، التي ترتعشُ عند حافةِ شفتيكِ مستلذةً بكِ.

ترتشفُ الشغَفَ من كلِّ خلاياكِ لتغدو قطرةً مقدسة. . .

تمتلك غوايةً لا يمتلكها نبع. . . . تثيرُ إيماني لأتوضأ بها . . .

ما من غيرها قادرٌ على تطهيري خليةً خلية لأستطيع الوقوف في حَرَمِكِ. . .

مصقولةٌ هذه القطرة ككأس كريستالٍ. . .أنتِ محتواه.

انتظري قليلًا إياكِ أن تبتسمي، لا أريدها أن تسقط أرضًا

وتتشظى. . .

أريد أن أتوضأ بها وأخشع داخلك.

أريدها . . . أريدُ أن أشربك. . .

تبتسمين وتسقط قطرتي المقدسة وأضيعُ بين أن أسقط خلفها وبين أن أسقط في غمازة خدكِ، وأغفر لكِ سقوطها عندما تسأليني فجأة:

_ (ما لون الروح؟) .

تلك الأسئلة الغريبة التي تطرق ذهنكِ تسأليها ليس لأنكِ تبحثين عن إجابة لها بل لأنكِ تريدين أن تتأكدي من أنَّ عقلي يعانق عقلكِ وأنني سأعطيكِ الإجابة التي تريدينها بشكلٍ مسبق.

_لا أعلم لون أرواح الجميع، فلكلٍّ روح لونها .

لكن روحكِ كمرجٍ أزرق، وقلبكِ يطفو فوقه كغيمة.

فتتسع ابتسامتكِ الجانبية لأعلم أنني نجحتُ في الإجابة.

_وأنتَ ما لون روحكَ؟

_ما الذي تظنينه؟

_بحرٌ أخضر.

_وقلبي؟

_قلبكَ حوريةٌ أسطورية تخبّئ وجهها بين كفيكَ.

ألن تُريني وجهها اليوم؟!

_بلى، سأدعوكِ مساءً إلى مأدبة كستناء... ووجه حبيبتي.

تتكئين على الجدار بجانب محلٍ لبيع السكاكر كأنك لم تسمعيني أو كأنَّ هنالك شيء لفت نظرك للمرة الأولى.

_لقد كانا رمزًا واحدًا.

ترفعين رأسكِ باتجاه هلال المئذنة.

_ما هما ؟

_الصليب والهلال. . .

كانا ملتحمين معًا يومًا ما . . . . رمزًا للأم الكونية الكبرى.

إنَّ الإنسان القديم قدّس الشمس لكن القمر كان اللغز المحيّر بالنسبة إليه.

فالشمس كانت واضحة المعالم تُشرق دومًا من الشرق من نقطة محددة وتغرب في الغرب في نقطة محددة، أما القمر فيبزغ من نقطة غير متوقعة ويختفي في نقطة غير متوقعة.

يتناقص قطعةً قطعة إلى أن يختفي ثم ينمو من جديد كأَنَّه لم ينقص يومًا.

لم يكن القمر إلا رمزًا لعشتار، فكانت الأنوثة قمر وكان القمر أنثى.

_وما زال، من حيث الغموض والجمال.

_أما الصليب فقد كان يرمز إلى الامتداد اللانهائي لحضور عشتار ولطالما كان الرمزين مترافقين معا* .

_كيف انفصلا؟

_لا أدري، لكن ما أعلمه جيدًا أنّ انفصالهما قلَّل من بركة الأرض، من جمالها ومن خصوبتها .

_يبدو أنها قاعدة ثابتة. . . كلما انفصل الإنسان عن أخيه الإنسان نبذتهما الأرض وحرمتهما حُبها وخيراتها .

ألم أخبركِ أن (اللا_انتماء) هو الحل!

_اللاانتماء سيخلق مجموعةً جديدة تضاف إلى المجموعات اللامتناهية. . . .

* في بلاد الرافدين كانت شارة عشتار البابلية عبارة عن دائرة مكتملة النمو يعلوها صليب وقد تم استخدام هذه الإشارة في الفن الديني المصري للدلالة على الحياة الأبدية، وفي جميع حضارات الشرق الأدنى والبحر المتوسط اقترن الصليب بالهلال حيث نجد الصليب في وسط الهلال أو إلى جانبه (المصدر: لغز عشتار لفراس السواح)

الانتماء إلى الكُل هو الحل.

_لا يمكنكِ الانتماء إلى الكُل بآن معًا، فالفروقات موجودة شئنا أم أبينا سواء بالعِرق أو الدين أو الطائفة، وحتى لو اختفَتْ هذه الاختلافات في غمضة عين سيبذل الإنسان جهده ليخترع اختلافات جديدة.

_في جميع الأحوال ليست المشكلة في الاختلاف بل بعدم تقبُّل أن الآخر ليس نسخةً عنا وبسعينا المستمر لحبسه في حيّزٍ يشبه المرآة ليكون مجرد انعكاسٍ لنا وإن لم يقلّدنا خطوة بخطوة بذلنا قصارى جهدنا لكسره وتهشيمه بيدينا، فإن لم نستطع فبلساننا، فإن لم نستطع فبقلوبنا.

لمحتُ وجهًا صغيرًا يظهر من خلف الجدار المقابل ويختفي.

فتاة بعينين بُندقيتين تقف على رؤوس أصابعها لتنظر إليَّ من بين جموع المارّة، يزيّن شعرها الأسود إكليلٌ من ورق الغار المُصفرّ.

احترتُ هل تنظر إليَّ أم لأكياس السكاكر بجانبي، لكنّها لوّحتْ بيدها لي فأدركتُ أنها تقصدني.

_تعالي معي يا ورد .

_إلى أين ؟

_إلى تلك الفتاة التي أشارتْ لي بيدها .

وعندما وصلنا للطرف المقابل لم أرى لها أثرًا .

_أيُّ فتاة يا كرم ؟

_لقد كانت هنا منذ لحظات ولوَّحت لي .

دوى صوت قوي فجأة واشتعلَتْ النيران في أكياس السكاكر واحترقت الواجهة الخشبية للمحل، وسادَتْ الفوضى السوق.

أمسكتُ بيد ورد وركضنا إلى وجهة غير معلومة ندوسُ الأرض المبللة بالدماء المختلط بأقراص النعنع والجيلاتين الملون.

لم أكن أفكر في الأرض اللزجة أو بجموع الناس المتراكضة بل في تلك الفتاة التي منحتني مكانها لأعيش.

هل الوهم هو الذي يجعلنا نستمرُّ بالحياة!

هل الخيال هو الذي ينتشلنا من مصيدةِ الموت مرّةً بعد مرة!

وأخيرًا جلسنا على درج قديم لنستريح، نظرتُ إلى قدمي ورد العاريتين الملطختين بالدم.

_يبدو أنها المرّةُ الأخيرة التي ستُفكرين فيها بخلع حذاءكِ.

_لن تكون الأخيرة، لكن أتمنى أن تكون المرة الأخيرة التي تتلطخ فيها قدمي بالدماء.

كان يقف في مكان قريب من الدرج رجلان مُسنان، قادهما صوت الانفجار للاستفسار عما قد حصل.

(بإمكانكما الدخول يا ولديَّ) **. . . . قال أحدهما**

استجبنا لدعوته ودخلنا إلى محلٍ صغير تتوسطه طاولة عليها لوح شطرنج وعلى ما يبدو كانت المباراة في مراحلها الأخيرة.

قام أحد الرجلين بإعطاء منشفةٍ لورد وأشار إليها بمكان وجود المغسلة بعد أن اطمأنّ عليها .

كان وجهه مشعًا وكأنَّ عينيه الزرقاوين محمولتان على هالةٍ من نور وتسندُ معالمه ابتسامة.

قام بالجلوس على الكرسي أمام لوح الشطرنج. . .

كان الحائط من خلفه مغطىً بسجادة عجمية ومجموعة من الآلات الموسيقية من بينها عودٌ وناي ومجموعة لوحات مرسومة بقلم رصاص، وعلى الحائط المقابل مجموعة من الأسلحة القديمة من مسدسات وخناجر وسيوف وترُوس.

ـ (كِش ملك أبو محمد) .

يضحك فتكبُر هالة النور من حوله. . . ثم يضيف:

_ (ألم أقل لكَ أنَّ موسيقايَ ستهزم أسلحتكَ دومًا) .

يلتفتُ إليَّ ويقول: أبو محمد شريكي في هذا المحل منذ عشرين عامًا وعندما ابتعنا هذا المحل معًا، صمم كلٌ منا جدار.

اخترتُ أنا أن أُعلِّق آلاتي الموسيقية واختارَ هو أن يُعلِّق أسلحته. . . قبل كل مباراة أسندُ ظهري على جداري بأمان وأهزمه في الشطرنج والطاولة وحتى الورق.

(يعترضُ أبو محمد: لكنني هزمتكَ أكثر من مرة.)

_هذا لأنك كنتَ تتكئ على جداري بالمصادفة.

فيرد أبو محمد ممتعضاً: بإمكان أي سلاح تهشيم أي آلة موسيقية.

يقهقه صديقي البشوش ويلمس أوتار العود قائلًا: إن الرصاصة عاجزة عن اختراق اللحن، والخنجر مهما كان حادًا لن يُمزّق جسد أرَّق سمفونية مُرهفة.

إنَّ الفنَّ وسيلتنا الوحيدة للنجاة.

ينظرُ في عيني ويقول لي:

وأنت ترتكبُ الحياة يا بُنَي، سيستيقظ الموتى من قبورهم ليخبروكَ أن صوت الموسيقا يُزعج آذانهم، وأن الألوان تخدش مآقيهم.

عانق اللحن حتى الالتحام، اسمح للألوان أن تُقبّلَ جسدكَ لتصبح جزءًا منك، فقد خُلق الإنسان في أحسن تلوين.

إياكَ أن تلوم من هم بلا لونٍ أو نغمة، بل دعهم يمارسون موتهم بهدوء.

يقول أبو محمد هازئًا: مع كل هذا الموت من حولنا تتشدق بالفنون.

_ستُغسَل الدماء من الشوارع وستُدفن كل الأسلحة يومًا، وسيتم عزف لحنٍ احتفالي بانتهاء الحرب.

أثناء ذلك دخل شابٌ لا يتجاوز السادسة عشر من عمره.

من عبارتِه (معلمي. . . معلمي)، عرفتُ أنه يعمل لدى أبو محمد وشريكه. . .

_لقد احترق محل أبو محي الدين وأصيبَ عدنان الذي يعمل لديه، لقد فقدَ ذراعه ونقلوه إلى المشفى.

قالها بنبرة خالية من الحزن!

-سعيدٌ لفقدان صديقكَ ذراعه! **قال أبو محمد عابسًا ومعاتبًا.**

فأجاب الشاب:

عدنان كان على وشك أن يُسحَب لتأدية خدمة العلم، بفقدانه ذراعه لن يتم تسييره من قبل أي طرف من الأطراف لحمل السلاح، سيتعافى ليستمر بإعالة والدته وإخوته الصغار.

هل الإنسان في هذا الوطن بحاجة إلى عاهةٍ دائمة كي يعيش... كي لا يكون مُجبَرًا على القتل!

ألقيتُ نظرةً أخيرة على الجدارَين وودعتُ صديقي ذو الحلم الموسيقي.

_إلى أين؟

_سنعودُ أدراجنا يا ورد.

_لا داعي... فلننسى الفنجان الآن ولنعُد إلى البيت.

_لا، سنعود لأخذ الفنجان.

كالعادة انتهت الحفلة وشُطِفَتْ الدماءُ وعاد الجميع إلى حياتهم الطبيعية.

_ربما من غير الطبيعي في هذا البلد أن يكون الإنسان طبيعيًا !

_ألا تريدين فنجانكِ؟

_ليس الأمرُ ضروريًا .

_لكنني أريد أنا فنجانًا كفنجانكِ. . . لأرتشف به البُنَّ المُحلى باللحن الهارب من الموت.

بيتي صغير بكندا

أصبح الموتُ زائرًا اعتياديًا . . .

يجلسُ على طاولتنا . . .يقضم تفاحة الحياة بلا مبالاة وهو يمارس اليوغا على الأرغفة الساخنة.

يندسُّ في فراشنا، ويتغطى بشراشفنا .

يستخدم فناجيننا وملاعقنا وينثرُ الملح والسكر. . .

ولأنه أصبح اعتياديًا فَقَدَ مهابته. . . !

وضعَ كرم الكستناء النيئة في طبقٍ مع سكين وتوجَّه إلى المدفأة:

ـــمن الجيد أنه لديَّ بعض الوقود في نهاية هذا الشتاء لنقيم هذه المأدبة. . .

أتدرين ماذا يُسمُّونَ الكستناء ؟

_ماذا يُسمُّونها ؟

_فاكهة العُشاق.

_لماذا يسمُّونها هكذا ؟

_ربما بسبب طقوس شيّها الدافئة، لأنك تُعرّضينها للحرارة كي تستطيعي نزع قشرتها القاسية بسهولة.

_غريبٌ كيف تَختبئُ خلف تلك القسوة كل هذه الهشاشةِ واللذة.

جلستُ على الأريكةِ الجلدية، فلسَعَتني برودتها.

وجدت غطاءً صوفيًا على الأريكة المقابلة.

_كرم هل يمكنني استخدامُ هذا الغطاءِ الصُوفي ؟

_طبعًا . . .

قالَها وهو مُنهمك بإحداث شقوق في حبات الكستناء.

رفعتُ الغطاء وإذْ تحته كتاب.

ليس هنالك أكثر إغراءً للعقل من شابٍ يقرأ، شابٌ تنعكس في عينيه زرقة الحروف، وعلى وجنتيه دفء الصفحات.

شابٌ يغوصُ في فكرةٍ ما وكأنه يتحداها .

يُشمّرُ عن زنديه ليتوضّأ بالكلمات، ثم يبتسم ابتسامةً جانبية. . . ابتسامةَ نصرٍ كأنّه اكتسب وجهًا جديدًا وعقلًا آخر.

شابٌ يمتطي حصانه كفارسٍ يتنقل بين كتب التاريخ، ثم يصبح فجأة مقاومًا للجاذبية ويطفو بين المجرات في كتب الفيزياء الكونية، يُمسكُ غليونه ويتنقلُ على بخاره من كتاب علم نفسٍ إلى كتاب فلسفة.

شابٌ تشعرُ أنَّ عقله مرآة لهوكنج ونيتشه وروبرت جرين.

حكيمٌ كأوشو، ساخرٌ كمارك توين، وطنيٌ كأحمد مطر، عاشقٌ كنزار قباني.

شابٌ يعانقُ عقل الكون ولا تستطيع إلا أن تعانقَ عقله فكرةً فكرة.

_أتُغطي الكتاب كي لا يبرد أم ماذا ؟

_هذا كتاب تاريخ أغطّيه كي لا تستيقظ شخصياته ليلًا وتلتهمني .

أضحكني تعبيره:

_أتخاف من شخصيات الكتب ؟ !

_أخاف من كُتب التاريخ تحديدًا .

التاريخ هو عملية تجميل لعقول ووجوه من اندثروا لنستطيع أن نرتديها باطمئنان، متجاهلين قُبحهم المتوّغل حتى العظم.

التاريخ مخيفٌ يا ورد .

ألا يخيفكِ أنَّ أصواتنا صادرةٌ عن حناجر من ماتوا !

وأنَّ أفكارنا نابعة عن عقولهم !

وأنَّ نظراتنا لا تتم إلا من خلال أعينهم !

هم يعيشون من خلالنا حرفيًا، هذا هو التقمُّص الحقيقي.

من ماتوا هم الأكثر قدرة على حُكم العالم.

الموت منحَهم سلطة مطلقة ربما لم يمتلكوها وهم أحياء.

هذا إن وُجدوا يومًا على خارطة الزمان...

_أتقصد أنّ الإنسان هو من اخترعهم!

_ليست جميع الشخصيات، لكن عددًا لا بأس به.

أتعلمين أشعر أحيانًا أن كُتب التاريخ تمَّ زجها زجًا في عقل الزمان إن صحَّ التعبير، لدراسة تأثيرها علينا.

_لا يمكن ذلك فبعض الآثار واضحة.

الأضرحة، القصور، الإنجازات، الألواح الطينية، الأهرام.

كل ما سبق شاهد على وجود أقوام سابقة.

_لكنهم مجهولي المعالم.

فكرتي مجنونة أعلم ذلك وتبدو أبعد ما يكون عن الصحة، لكن العديد من الأسئلة تلتهم عقلي.

_مثل ماذا ؟

_لماذا يتكرر بعض الأشخاص في حقباتٍ زمنية مختلفة كأنه تم نقلهم بشحمهم ولحمهم عبر الزمن مع اختلافات بسيطة في تفاصيل حياتهم!

لماذا يتشابه النبي موسى مع سرجون الأكادي الذي أسس بابل (٢٨٠٠ق.م) !

أتعلمين ما الذي كُتب على الألواح البابلية!

_ماذا ؟

_ (أنا سرجون الأكادي الملك القوي. . .ملك أَكَّاد، على ضفاف الفرات حبلت أمي بي، ولدتني سرًا ووضعتني في سلةٍ من الأَسَل وسدّت فتحاتها وتركتني للتيار، حيث لم أغرق)* .

* المصدر: موسى والتوحيد لفرويد.

حتى شقِّ البحر الذي قام به النبي موسى مشابه لعملٍ سحري وَرَدَ في بُردية مصرية قديمة تعود إلى ١٥٥٠ ق.م**

هل فهمتِني؟ هذه الملامح المختلطة الضبابية تثير استغرابي.

_لكن التشابهات واردة، فما تعيشه أنتَ اليوم قد يكون هناك شخص آخر يعيشه في مكان أو زمان آخر.

_يختلف الأمر كثيرًا عندما يكون التشابه بين شخصيات فارقة في التاريخ عن التشابه بين أشخاص عاديين.

_ما الذي تعتقده؟

_لا أعتقد شيئًا . . . . أنا أسأل فحسب، وأعترف أنها أسئلة غريبة ومن الصعب إيجاد إجابات لها، لا سيما في تاريخ بعيد عن نقطتنا الحاضرة.

** المصدر: دين الإنسان لفراس السواح.

في جميع الأحوال لكل قصة تاريخية هدف ومغزى لتدعم طرفًا من الأطراف، والمغزى ليس بالحدَث ذاته بل بالنتيجة، فقد يُرسَم أي حدَث بأبعادٍ خيالية للوصول إلى نتيجةٍ تُصوَّر لنا على أنها حقيقة محضة.

_أنا أيضًا لا أثق بالنتائج الظاهرة للعيان، فكولومبوس مثلًا لطالما حُفِرَ في ذاكرتنا الطفولية على أنَّه البحَّار المغامر البطل، لكن تمَّ التستُّر على ممارساته تجاه شعب التانيو في جزر الكاريبي، فقد ترك رجاله يمارسون الاغتصاب والقتل تجاه شعب التانيو اللطفاء الذين أرشدوه إلى مكان الذهب ورحبوا به فأتى ردُّ الجميل على شكل إنشاء مستعمرة في أراضيهم وقتلهم ثم فرض جزيةٍ على من بقي منهم على قيد الحياة، بل كانوا يقطعون يد كل شخصٍ عاجز عن دفع الجزية* .

* المصدر: تاريخ الأحداث الكبرى لسينثيا براون.

_دومًا كان التاريخ مبرمجًا لخدمة طرف من الأطراف على حساب طرف آخر.

فجنكيز خان أو أتيلا الهوني أبطالٌ فاتحين بنظر شعوبهم لكن ماذا عن الشعوب المتضررة؟

ماذا عن النساء اللاتي اُغتصبنَ وسُبينَ؟

أو الأطفال الذين فقدوا آبائهم؟

أو أولئك الذين نَبشُوا قبور موتاهم للبحث عن معادن ثمينة لدفع الجزية؟

لا وجود للأبطال المطلقي الخير إلا في الرسوم المتحركة، فحتى الخير والشر نسبي...

فما هو خيرٌ بالنسبة إليكِ قد يكون قمة الأذى والشر بالنسبة لغيركِ...

أتعلمين. . . أعظم الملاحم تلك التي تتم على صعيد الروح، هذه الملاحم لا يذكرها التاريخ ولذلك هي حقيقية.

_لا أحد يسمع صليلَ سيفك في معركتك على ذاتك يا صديقي.

_أنا أسمعه.

_ومن الذي أخبركَ أنني في معركة حالياً ؟

_كل إنسانٍ على قيد الحياة يخوض معركة، وحدهم الموتى ترجلوا عن أحصنتهم وقرروا متابعة معارك الآخرين.

_صدَقتْ.

_ نصيحتي. .

امتطي صهوة النسيان لتحسُمي معركتكِ الأخيرة. . .

إنسِ. . .

انتشرت رائحة الكستناء في الغرفة وسُمِعَ صوت طقطقتها .

_هذه الكلمة بالذات لها مفعول عكسي على الذاكرة، وكأنها كلمة سرٍّ لاستدعاء الذكريات.

النسيان ما هو إلا أسطورة، الجميع يتحدّثون عنه لكن لم يحدث أن حصل يومًا.

_ليس بأسطورة إلا إن رغبتِ أنتِ بجعله كذلك.

_ربما عليَّ أن أذهب في رحلة إلى كندا لأقرر.

_لِمَ كندا بالذات؟

_كي أعبرَ جسر النسيان* ، ربما حينها سأنسى ما قد آلمني يومًا.

_كل ما أنتِ بحاجة إليه لتنسي آلامك... هو العبورُ منكِ... إليَّ.

اعبري إليَّ، وأنا سأقطع الحبال التي تقيدكِ بالماضي.

* جسر يقع على ساحل المحيط الهادئ في كندا.

اعبري إليَّ ولنحرق الألواح الخشبية التي تفصلكِ عني، لنتدفأ بها على ضِفَّتي.

_ماذا لو أثقلتُ كاهلكَ ألمًا، فقررتَ العبور إلى ضفة أخرى.

كيف سأعودُ بعد ذلك إليَّ؟

_لم أظن أنكِ ضعيفة إلى هذا الحد!

كل هذا بسبب علاقة عاطفية فاشلة!

_ليس بسببه.

_إذن؟!

_أتذكُر اليوم الذي أُصبتُ به وتمَّ نقلي إلى المشفى؟

_طبعًا أذكُره.

_في ذلك اليوم...

في ذلك اليوم تعرضتُ لحادثة اغتصاب.

_في المشفى ؟ !

أحد الممرضين أو الأطباء ؟ !

من هو؟

أتذكُرينه ؟

_ليس في المشفى، بل قبل نقلي إلى المشفى .

_أتقصدين !

_نعم .

_وأنتِ مصابة ؟ !

_نعم .

_ولماذا لم تخبريني ؟ !

_انظر إلى ردة فعلك . . .

من كان سيُصدقني ؟ !

_إنني مصدومٌ فحسب.

ألهذا السبب انتقلتم من الحي؟!

_أمي من قررت أن ننتقل.

_أخبرِتها؟

_لا، لقد قرَرَتْ ذلك بسبب تردي الوضع الأمني فحسب.

_لماذا لم تخبريني؟ لماذا؟!

_ها أنا أُخبركَ الآن، ما الذي سيتغيَّر!

_كان يجب أن تُخبريني في ذلك الوقت.

_ما الذي باستطاعةِ طفلين أن يفعلانه!

_باستطاعتنا على الأقل أن نوقفه عند حدّه.

ألم تفكري أنه بِصَمتكِ لم تؤذي نفسكِ فحسب بل رُبما كان صمتكِ سببًا لوقوع العديد من الفتيات الصغيرات بين يديه.

لا يجب الصمت عن حوادث كهذه، لأنها تزيد من عدد المجرمين الطُلقاء .

_في مجتمعٍ محافظٍ كمجتمعنا من الأفضل الصمت .

_محافظٌ على ماذا بالتحديد ؟ !

على المُختلين والمجرمين !

_تتحدث وكأنكَ لا تعلم أنَّ مستقبل كل فتاة هنا يتم تحديده بثلاثة قطراتٍ من الدماء !

_نعم الفتاة الضعيفة غير الواثقة بنفسها .

طالما أنت لم تُخطئي، فلا يجب أن تسمحي لمُختلٍ بتحديد مصيركِ .

_لن يُسمع لنا أيُّ صوت .

_ذلك لأنكنَّ لا تتكلمنَّ، لكن لو امتلكتْ كل فتاة الجرأة لتلجأ إلى القانون لتضاءلت أعداد المتحرشين عوضاً أن يكونوا بأعدادٍ هائلة لكن مُختبئين خلف قناع صمتكنَّ.

_الشخص الوحيد الذي أخبرته، استغلَّ الأمر ضدي.

_مَن؟

_ليث.

_كيف استغلَّه؟

_استخدمه كورقة ضغطٍ عليَّ. . . لم يتوانى للحظة أن يُشعرني أنني أنقَص من الأُخريات وأنني كاذبة.

_لماذا تنتظرين أن يراكِ الآخرون كي تري نفسكِ؟

_لأنني وببساطة جزء من هذا المجتمع وخاضعةٌ لأحكامه وقوانينه، وهو الذي يحدد نقصي وكمالي.

_بل أنتِ من تُحدّدين ذلك، فلو رأيتِ نفسكِ ناقصة ستكونين كذلك حتى لو أقسَمَ الكون ببحاره ومحيطاته وأشجاره ووديانه بكمالكِ.

لكن من الذي أخبرك أنَّ على الإنسان أن يكون مكتملًا ؟

ألا تدرين أنه كلما اقتربتِ من الكمال. . . . كلما نقصتِ أكثر !

لأنه في كل مرة تتلمسين كمالك المفتَرَض ستظنين أنكِ تستحقين المزيد والمزيد ولن تصطدمي إلا بخيبة أمل جديدة.

إن الكمال يلتهمُ الإنسان من الداخل حتى يصبح مجوفًا .

_كيف ذلك ؟

_سأعطيك مثالًا ذَكَرَهُ الحكيم الصيني لاوتسو:

إنَّ الإناء الممتلئ سيوحي بالكمال لأنه ممتلئ، لكنه بذات الوقت ناقصٌ لأنه غير قادر على الامتلاء بالمزيد، على عكس الإناء الناقص القادر

على استيعاب المزيد والمزيد إلى أن يمتلئ، لكن حتى هذا الإناء غير مثالي.

الإناء المثالي هو الذي لم، ولا ولن يمتلئ أبدًا.

كل شعور بالكمال هو نقص، وكلُّ نقص هو اقترابٌ للكمال.

فأنتِ مكتملة بنواقصكِ.

عليك أن تفهمي يا ورد أنَّ الأشياء التي أُخِذَتْ منكِ عنوةً لا تُنْقِصُكِ، لكن يجب أن يتيح فقدانها امتلاءك بأمرٍ جديد.

أنتِ أجمل مما تظنين، إياكِ أن تبحثي عن نفسكِ في عيون الآخرين.

فما من أحدٍ كان معكِ عندما وقعتِ عن الرصيف وأنتِ تحاولين ألا تطَأي مجموعة نملٍ تجمعُ مؤونتها الشتوية.

وقد كنتِ وحدك وأنت تتضورين جوعًا، فأعطيتِ وجبتكِ لطفل ينظر إليها كأنها حلمٌ هارب من يديه الصغيرتين.

لا أحد شاهدكِ وأنت تُغنّين لشتلة زهور كي تكبر وتحمَّر بتلاتها، أو وأنتِ تمسحين الدمع عن وجه شيخ عجوز سقط على رصيف الزمان.

لا أحد يعلم كم هو لذيذٌ الحليب الذي تُعدينه مع رشّة فانيليا، أو كم هي صافيةٌ ملامحكِ وبريئة وأنتِ تشاهدين الرسوم المتحركة، لا أحد يعلم أنكِ لا ترددين سورة الكهف كلَّ جمعة لكنك كل يوم تقيمين جدار روحٍ يريد أن ينقضَّ دون أن تتخذي عليه أجرًا.

كنتِ وحدكِ وأنتِ ترتدين أصابعًا دافئة كي تُربّتي بها على كتف صديقكِ، وستكونين وحدكِ وأنت تخرجين من رمادكِ كطائر الفينيق لتبني نفسك خليةً خلية، وريشةً ريشة. . .وتخلقين السماء غيمةً غيمة لتكون على وسع جناحيكِ.

لم ولن يكونوا معكِ أثناء ذلك كله، لكنكِ أنتِ دومًا ستكونين برفقة نفسكِ، فكيف ترضين أن يُقيّمك أحدٌ يجهلك!

لستِ مسؤولة عن نظرة الآخرين إليكِ، فكيف للعيون الغارقةِ بالقُبح أن ترى الجمال!

_يبدو أنها ستُمطر. . .الرعدُ يدوي.

_لماذا تُغيرين الموضوع؟

تعالي معي. . .

_إلى أين؟

_ستعلمين.

وضع يديه على عيني ودفعني نحو الأمام . . . . ثم توقف بعد أمتارٍ قليلة.

اقترب من أذني وهمس:

_جاهزة؟

_جاهزة.

فوجدتنا واقفين أمام المرآة ويديه تكشفان عن وجهي:

_اكتملت المأدبة. . .كستناء ووجهُ حبيبتي. . .

أرجوكِ لا تُحمّلي نفسكِ ما يزيدُ عن طاقة احتمالها يا ورد.

ستكون حياتكِ أفضل إن اقتنعتِ بذلك.

_نعم. . . ستكون.

_فلنتخيلها معًا كيف ستكون، أغمضي عينيكِ وأخبريني.

منزلٌ كبير؟

عائلة جميلة وأطفال؟

_حاليًا لا يسعني إلا تخيُل نفسي وأنا أضع قبعة قشٍ كبيرة، أرتدي تنورةً زيتية طويلة وقميصًا أبيض بأكمام واسعة وحلقةٍ ضيقة عند الرسغ.

أنحني لأداعبَ حبّات الفراولة المزروعة في الفناء الخلفي لمنزلي.

أحدّثها وأغازلها . . . أُخبرها كم ستكون مُغريةً في طبق قشطة طازجة مغمورةٌ في عسلٍ أشقر .

_ستحمرُّ وستنضج في لحظتها ، فبالشمس والغَزَل ينضجُ كلُّ حي .

أكملي ورد .

_سأمشي حافية في الحقول الطينية الرطبة .

أتجوَّل بين أشجار الدراق . . .

ألامسُ ثمارها . . .

أتعطر برائحتها وأُصبح مثلها . . .

حلوةً وحامضة . . .

باردةً منعشة . . . ومُخَّدِرةً دافئة . . .

ناعمةً . . .طرية . . . . مخملية . . .

ثم سأتجه إلى النبع . . . . أفركُ قدميَّ بصخرة بيضاء . . .

لأكتشفهما من جديد .

ستشاركني صخرتي فراشةٌ صفراء . . . تدفعني وتدفعني نحو الماء إلى أن أسقط في العذوبة، فتنتهي مهمتُها وتطير . . .

_سأمسك بكِ .

_لن تكون هناك .

_بلى سأكون، حتى لو اضطررتُ أن أتنكَّرَ بعصفورٍ دوريّ .

_لن يستطيع عصفورٌ أن يحملني .

_حسناً، قررتُ أن أتنكَّر بالنبع .

_هل سأغرق حينها أم سأطفو؟

_لا هذا ولا ذاك .

أنا وأنتِ مصنوعين من ذات المادة .

سنندمج فحسب . . .

_ما هي هذه المادة؟

_غُبار النجوم.

تابعي، حدثيني عن المنزل.

_حجري.

_توقعته خشبي بسقفٍ مائل.

_لا، بل حجري بلون دقيق القمح، له نافذةٌ خشبية وبابٌ مُقنطر تصعد إليهِ بأربع درجات عريضة.

سأجلس عليها لأصنع عُقودًا من التين والمشمش أجففها تحت الشمس.

وأستمع إلى ثغاء الماعز الأبيض وهو يرعى من حولي.

وقبل أن تغيب الشمس أُغلق السياج. . .

أُدْخِل الماعز إلى الحظيرة وأجهز سريرًا من القش للعجل الصغير.

_سيكون مدللًا إذن.

_نعم، سأحضِر بعد أن ينتهي نهاري عشاءً خفيفًا من الجبن الأبيض والخبز الأسمر وحبات طماطم كرزية.

_طماطم ناضجة بالغزل.

_هههه طبعًا، سأضعها في طبقٍ خشبي وأتناولها وأنا جالسةٌ على العشب الندي.

_أعطِني قَضمة.

_لا، لن تكون هناك.

_لماذا تُصرّين على إبعادي.

_.....

_أعلم. . .أعلم أنكِ خائفة من خيبة أمل جديدة، لكنني كرم يا ورد.

أؤذي نفسي ولن أؤذيكِ.

أنا من خلالكِ ألامسُ طفولتي، أعودُ طفلًا معكِ وحدكِ.

إن خدشتكِ سيتمزَّق الطفل داخلي.

لن أخاطرَ به أو بكِ.

انقطع التيار الكهربائي

_كرم أليكَ شموع؟

_مع كل هذا البرق الذي يضيء الغرفة تريدين شموعًا ؟

_أتعلم لطالما اعتقدتُ أن البرق هو صورٌ تلتقطها الملائكة لنا .

_ما رأيكِ أن نمنح الملائكة صورة مميزة هذه المرة؟

إنَّ الإنسان لمخلوقٌ ساذج. . .

يعتقدُ أنَّ الوضع الطبيعي أنْ يكون في يده خمسة أصابع فقط، وعندما ينكشف عن قلبه الستار يُدرك أنَّ كل يدٍ تتسع عشرَ أصابع لا خمسة.

يدرك أن مُحيطَ خصره يحتاج يدان تعانقانه كي لا ينهار، وأن شفاهه ستقع إن لم تُسندها كلمة أحبك، وأنَّ أنفاسه ستتجمد داخل رئتيه إن لم تجد نفسًا يختلط بها ليدفئها.

في غرفةٍ تشبه نفقًا مفتوحًا على السماء، يسيل الحلم على نوافذها، يصبح للروح فيها أجنحة ملاك وشعلة شيطان، فتطير إلى الأعلى ثم تعودَ لتختلط بجسدينا.

_هذه الصورة التي التقطتَها لكِ الملائكة ستأخذ جائزة أجمل صورة في المسابقات السماوية يا ورد.

_هههههه كنتَ مُغمضَ العينين، كيف لكَ أن تتأكد من ذلك؟

_أن أكون مغمضًا ذلك لا يعني أنني لا أراكِ.

عندما تُحبّين ستستطيعين الرؤية بلا عينين.

ستستطيعين الرقص بدون ساقين.

ستستطيعين العناق بدون ذراعين.

طالما أنني قادر أن أحملكِ فوق الغيم، كل هذا الجسد لا فائدة منه.

الحبُّ يُعلمنا كيف نُحوّل ما تبقى منا كجسدٍ إلى روح.

أمسكَ وجهي من جديد بين يديه ثم فكَّ رباط شعري.

_ورد، ليس لديَّ محبسٌ الآن من ذهبٍ أو ألماس، وليس لديَّ رغبة في حبسكِ داخل أي حلقات أو تسميات أو أقفاص.

سحب خصلةً من شعري وثنى نهايتها وحوّلها إلى حلقة:

ليس لدي أثمنُ منك...

إنني أتقدم بكِ...إليكِ...

أحاط خصلة الشعر بخنصري وقال: تزوجيني.

موعود بعيونك أنا

جاء شيطانٌ شابٌ يلهث وهو يركض إلى رئيسه الشيطان العجوز فقال له:

يجب أن نفعل شيئًا بسرعة، فعلى الأرض ظَهَرَ إنسانٌ عرف الحقيقة.

ماذا سيحدث لنا إذا عَرفَ الإنسان الحقيقة؟

فضحك الشيطان العجوز وقال: اجلس واسترخِ ولا تقلق، لقد حسبت حسابًا لكل شيء.... رجالنا هناك.

_ولكنني جئت توًا من هناك ولم أرَ شيطانًا واحدًا.

_رجالنا هم قساوسة أحاطوا بالذي وجدَ الحقيقة، سيصبحون الآن وسطاء بين الله وبين الجماهير، سيبنون المعابد ويكتبون الكتب المقدسة ويُفسرون كل شيء تفسيرًا مغايرًا للحقيقة ومشوهًا لها،

وسيطالبون الناس أن يتعبَّدوا ويُصلُّوا ووسط هذه الفوضى ستغرق الحقيقة بسهولة، إنَّه أسلوبي القديم ولم يخذلني ولا مرة* .

بُنَي الذي لم يأتِ بعد . .

لا بُدَّ أن تكون القصة السابقة مألوفة بالنسبة إليكَ، فسأقصّها عليكَ عشرات المرات . . . حتى تملَّ من سماعها .

لكنكَ ستستحضرها عندما يخطر على بالكَ البحث عن الحقيقة .

ستسألني ما الحقيقة؟ !

وكيف لي أن أُخبركَ !

فالحقيقة لا يُحكى عنها .

الحقيقة تُعاش . . .

* القصة من كتاب عن الرجال لأوشو.

تُعاش فحسب.

ستتساءل يومًا:

(من أنا؟ كيف وُجدتْ؟ ولماذا جئتُ إلى هذا العالم؟

أين كنتُ قبل ميلادي وأين سأذهب بعد موتي؟)

أيُّ إجابة قد أُقدمها لكَ أنا أو غيري.... مَحْضُ خيال.

فأنا لا أملك ذاكرةً تعود إلى ما قبل ميلادي، ولا أظنُّ أن هنالك طريقةً لأتواصل بها معكَ بعد موتي لأخبركَ بما يوجد هناك.

لا أحد عاد من الموت يا بُني.

ستتساءل يومًا عن الله...وعن الشيطان.

عن الثواب والعقاب.

عن الجنة والنار.

عن الخير والشر.

الحقيقة الوحيدة التي سأسمح لنفسي أنْ أشي لكَ بها أنَّ ما هو حقيقيٌّ بالنسبة إليكَ قد يكون خرافةً مضحكة بالنسبة لغيرك.

فيما يخص الغيبيات إن الإنسان يبتكرُ الإجابات التي تناسبه كي يستطيع أن يستمرَّ في هذه الحياة. . . كي يحصل على الطمأنينة.

فلا تُعكِّر طمأنينة الآخرين وبذات الوقت لا تسمح لأحدٍ أن يبتكر عنك الإجابات، فسلامك الرُّوحي مقترنٌ بها.

إياكَ والإجابات الجاهزة، فهل إنْ أكلتُ أنا . . . . ستشبع أنتَ؟!

ستفتح عينيك يا بُني في هذه الحياة لتجدَ أنَّ أفكاركَ موجودةٌ قبلك، فالأفكار والعقائد والأديان تنتقل بالعدوى.

ستجد أباكَ راكعًا في معبده، فما أمامكَ إلا أن تركع بجانبه.

ستجدُ معلمكَ مبجلًا لشخصية ما، فما أمامكَ إلا أن تكون مُبجلًا لها أيضًا.

ستجد صديقكَ ينعتُ أتباع الأديان الأخرى بالخاطئين والآثمين، ستنجرُّ خلف حُكمه حتمًا .

لماذا ؟

لأنكَ منهُم، ولأنه من السهل دومًا على الجُزء أن يتبع الكل .

إنَّ الإنسان يبحث دومًا عن حُب الآخرين وتقبُّلَهم له، فهذا الطريق الذي سيقوده حتمًا للرضا عن ذاته .

أتتخيل مدى الألم والاستهزاء والانتقاص الذي سيتعرض له شخص ما فيما لو خالف جماعته !

ومع كل ذلك أعيدُ على مسمعكَ، إياكَ والإجابات الجاهزة حتى لو كانت إجاباتي !

فأنتَ لست بحاجة إلى وسيطٍ بينكَ وبين الله، لا حاجة لرجالٍ بينكَ وبين الرب. . . هم يبعدونك عنهُ فحسب، فهل ستصدق أنَّ الله قد يختار أن يحادثكَ من خلال الآخرين على أن يُحدثك من داخلك!

فاحذر مَن يسلبكَ عصفور حياتك ليَعِدكَ بعشرِ عصافير بعد الموت.

احذر من يحوّلِ حياتك إلى جحيم بحجة أنه يحاول حمايتكَ من الجحيم.

فذلك النعيم امتدادٌ لهذا النعيم وذلك الجحيم امتدادٌ لهذا الجحيم وكلاهما داخلكَ. . . . نعيمكَ وجحيمكَ.

تأكد أنَّ كُل طريق لا يقودكَ نحو أخيكَ الإنسان لن يقودكَ إلى الله.

فلتفعل الخير لإعمار هذا العالم فحسب، لتزرع البسمة على شفاه أخيكَ الإنسان، دون أن تُمسِك الآلة الحاسبة لتحسب الحسنات التي ستحصل عليها بعد الموت، ودون أن تحمل متراً لتقيس حدود منزلكَ في الجنة.

اختبر إنسانيتك في كلِّ ما تقوم به، فكلُّ إنسانٍ هو مُتدين ولكن ليس كل مُتدينٍ هو إنسان.

وتذكر ما قاله أوشو: أنَّ كلمة الشيطان في اللغة الإنكليزية (devil) كلمة جميلة جدًا، لكن إن قرأتها من اليمين إلى اليسار (lived) وتعني مُعاش...

أي أن ما يُعاش يصبح إلهيًا ومالا يعاش يصبح شيطانيًا.

ابنتي الغالية....

ما القصة التي سأقصُّها عليكِ كل ليلة؟

لم أقِّرر بعد.

لكنني حتمًا لن أقصَّ عليكِ قصة الأميرة التي قَضَتْ وقتها تُقبِّل الضفدع وتُطبطب على رأسه الأخضر لتحوّله إلى أمير.

أريدكِ أن تعرفي أنّه مهما قبلتِ الضفدع لن يتحول إلى أمير.

فالضفدع سيبقى ضفدعًا، والأمير سيبقى أميرًا.

وحتمًا لن أقُصَّ عليك قصص الفتياتِ الضعيفات المقهورات العاديات اللواتي ينتظرن أُمراءً ليحولوهنَّ إلى أميرات.

إنَّ الأميرات هنَّ من يصنعنَ أنفسهنَّ بأنفسهن.

إياكِ أن تضعي على رأسكِ تاجًا ليس لكِ وأن تحملي بين يديكِ صولجانًا ليس مُلككِ، وإلا فلتتوقعي أن يستعيدك المالك عندما يريد أن يسترد ممتلكاته أو يبيعكِ إن أراد بيعها.

عليكِ يا صغيرتي أن تُقيمي حدود مملكتك...

من العقل حتى القلب...

أن تُشيدي بنيانها عِلمًا وحُبًا...

من الجسدِ حتى الروح...

أن تقيمي حصونها جمالًا . . . . وسلامًا .

سيخبرونكِ يا صغيرتي أنَّ عاطفتكِ ستجعل عقلكِ ناقصًا وستُؤّثِر على اتخاذ قراراتكِ في الحياة العملية .

لا تُصدقي أن هناك إنسانٌ على سطح الأرض ليس لديه عواطف وأنَّ عواطفه قد سيَّرتهُ في اتجاهٍ مُحدد يومًا ما ، ذكرًا كان أو أنثى .

عقلكِ سيسعى دومًا لأن يبقيكِ على ضفة الأمان، أما قلبكِ فلن يرضيه الأمان فحسب بل سيكون متلهفًا إلى اللذة والسعادة .

فلتسمحي لقلبكِ أن يُمسك بيد عقلكِ وليمشيا سويًا جنبًا إلى جنب في طريق الحياة .

وتذكري . . .

لا أحد يأتي إلى هذا العالم بعقلٍ ناقص، لكن عقله سينقص حتمًا إن اقتنع هو بذلك .

تعلَّمي الرقص والرسم والفنون.

عيشي الحياة كما يجب أن تكون، فكلُّ ما يبعدكِ عن الحياة لن يضمن لكِ موتًا أفضل.

سيخبرونكِ أنَّ أصابعكِ التي تنحتُ تمثالًا عورة.

وأن وجهكِ الذي يُشبه ترنيمةً ملائكيةً عورة.

وأن صوتكِ وضحكاتكِ التي تذوب في فنجان قهوتي عورة.

وسأخبركِ أنه عندما تقتنع المرأة أنها ليست عورة سيقتنع الشرقيُّ تلقائيًا أنه ليس إله.

وأنَّ مسؤولية كبح شهواتهِ تقع على عاتقهِ، وليس عليه أن ينتظر من الجنس الآخر أن يختفي من أمام ناظريه كي يُصبح إنسانًا.

سيخبرونكِ أنك ضلعٌ أعوجٌ وقاصر.

لكن كلُّ ما بيدي فعله أن أحضنَكِ في الليالي الشتوية لنتفقد ألبومات الصور القديمة معًا لتتعرفي على جدتكِ وعلى أعمامكِ وعماتك.

وأننا جميعا ذكورًا وإناثًا خُلقنا من رحمها.

سأخبئ لكِ صورة الإيكوغرافي، لتري والدكِ وهو يطفو في السواد الدامس داخل جسدٍ من نور، وسأحدثك عن (نن تي) سيدة الضلع التي خلقتها الآلهة ننخرساج من ضلع الإله إنكي*، لتستمتعي بالأسطورة السومرية كأسطورة وليس كواقع.

أتركككما الآن ما بين قلبي وأوراقي...

كما تعلمان لقد طلبتُ يد أمكما للزواج.

أعدكما أنني سأحبها من أجلكما...

* المصدر: منابع سفر التكوين لسيد القمني نقلاً عن كتاب السومريين لصموئيل باركر.

وسأحبكما من أجلها . . .

أستأذنكما الآن سأعدُّ لها مهرًا . . . . قصيدة.

وسأُجهز حقيبة السفر.

وورودُكَ تُغريني بشهياتِ القُبلِ

التقطتني أمي مرةً وأنا أرسم قلبًا على أحدِ دفاتر التلوين، تلك الدفاتر التي تحوي رسوماتٍ جاهزة.

كان الرسم لشخصية ساندي بل الكرتونية وبجانبها مارك، وكل ما قد قمتُ بفعله هو رسم قلبٍ بينهما .

اخترته أن يكون بنفسجيًا متوخيةً كل الحذر من اللون الأحمر وكأنني لا أريد تثبيت التهمة على نفسي، وكتبتُ كلمة love باللون الأزرق داخل القلب.

زجرتني حينها . . . (قلوب وlove ها !) .

فما كان مني إلا أن أخبرتها بسذاجةٍ طفولية أنهما متزوجين لأتهرَّب من الموقف.

_ومن الذي زوجهما ؟

_أنا .

ومنذُ ذلك الحين بتُّ أعقد قران كل دمى الباربي والدببة المحشوة وحتى أبطال الرسوم المتحركة قبلَ أن أسمح لها بحُبِّ بعضها بعضاً .

ذلك المفهوم الذي قد وصل إلى ذهني في تلك الفترة أن كل حُب هو عارٌ إن لم يقترن بالزواج.

أيُّ نوعٍ من الحُب أو أيُّ إحساسٍ يربطنا بالجنس الآخر حتى لو كان مجرَّد رغبة في الظهور في فيلم ما إلى جانب ممثلٍ وسيم.

رغم أنَّ هذا الشعور قد يكون مرتبطاً بنا بشكلٍ مباشر.

أن نكون مميزين بحيث نظهر جنبًا إلى جنب مع شخص مميز، لنثبت لأنفسنا أننا مميزين فحسب.

آه. . . . أهذا هو الحب ! ؟

حُب الذات؟ أم حُب لآخر؟

في ذلك الوقت لم أستطِع التمييز بين النوعين .

لستُ أنا فحسب، بل غالبية من عرفتهم لم يحدث أن ميزوا بين النوعين قط !

هل حُب الذات مرتبطٌ بحُب الآخر، هل يدوران في ذات الحلقة؟

قرأت مرَّةً: أنَّ المشكلة الأولى للإنسان أنه يريد أن يُحب أحدًا آخر وهو عاجزٌ عن حب نفسه.

لكن هل الإنسان قادرٌ على حُب ذاته إنْ لم يُحبه أحدٌ آخر؟

وأقصد ذلك النوع من الحب الذي يُشعرُكَ بأهميتكَ وتفُّردكَ حتى لو بالنسبة إلى شخص واحد على سطح الأرض فيمنحكَ أملًا بالحياة.

في عالمٍ لا يُعانق الآباء أبنائهم ولا الأبناء أمهاتهم إلا في المناسبات الرسمية.

في عالمٍ يُخشى فيه رسم القلوب وكأنها رمزٌ للنازية.

في عالمٍ لا تسمع فيه كلمة (أحبك) بصوتٍ عالٍ إلا في الأفلام والمسلسلات، ولم يحدث يومًا أن قبَّل زوج زوجتَهُ أمام أبنائه خجلًا، لكنه يضربها ويشتمها علنًا!

في عالمٍ يُخفي الآباء الحب عن أبنائهم خلف الوسائد وتحت الأسرّةِ لأن هاجسهم الوحيد ألا يضبطوهم يومًا مع عشاقهم بين الوسائد وعلى الأسرّةِ.

في عالمٍ كهذا من الطبيعي أن يبحث الطفل والمراهق عن الحب ليصطدم (بِحُبٍ) ليس كالحب الذي يحتاجه لينمو روحيًا.

في عالمي الذي غادرَنا فيه والدي ليتزوج من امرأة ثانية عندما تنبَّه إلى أن زواجه من امرأة مسيحية (أمي) لم يكن خطوةً حميدة.

في عالمي كان الزواج يعني مجموعة من الكدمات البنفسجية والزرقاء والأصوات العالية...

كان يعني تقاسمي بين الجبهات.

وكان الحبُّ يُقدَّمُ لي كما تُقدَّمُ عظمةٌ لكلبٍ أليفٍ أحسَنَ الصنيع.

كلبٌ يُحضِرُ الكرة الحمراء لأبيه، والصفراء لأمه.

لكن ماذا لو فعل العكس، وخلط بين الكرة الصفراء والحمراء؟

سيبيتُ بلا عَظْمةٍ... بلا حُب!

كنتُ أريد أن أخبرهما أن الحب لم يعني لي تلال الأثواب والدمى التي كانوا يقدمونها لي كتكفيرٍ مُبطن على أنهما والدين غير مثاليين، بل أن يتوقفا عن شنِّ معركة أنا سلاحها وعتادها، وأنَّ محاولة كلٍّ منهما لجعلي نسخةً طبق الأصل عنه ليست حبًا بي بل حبٌّ وتقديسٌ لذواتهم، رغبةٌ أنانيةٌ بإكمال حياتهم من خلالي.

إنَّ أكبر جريمة قد يقوم بها الآباء هي تملُّك أبنائهم تحت اسم التربية، أن يتحكموا بأفكارهم ومشاعرهم وبمصائرهم في الدراسة والعمل والزواج، ثم يقدموا لهم رشاوى لتمويه ذلك!

الحب يا أبي لا يعني أن تدفعني للصلاة في مسجدك.

الحب يا أمي لا يعني أن تمسكي بيدي في كنيستك.

الحب يعني أن أعيش خارج ساحة المعركة، الحب يعني ألا يكون هنالك معركة!

الحب هو أن تنظرا في عيني وتخبراني أنكما فخورين بي بآثامي، الحب هو ألا أشعر أنني خطيئة وأنني ثمرة صراع ديني، عرقي أو حتى جنسي تترامیان فيه تهمة من قد قضم التفاحة!

الحب يعني أن تعانقاني وتعانقاني وتعانقاني...

الحب يعني أن أخالفكَ في فكرة، وتخالفني في فكرة ثم نشرب الشاي معًا كأن شيئًا لم يكن ففكرتكَ ستبقى داخلكَ وفكرتي ستبقى داخلي.

أنتما كان لكما الخيار بأن تكونا مع بعضكما البعض أو لا تكونا . . .

أن تنجباني أو لا تنجباني. . .

لكن أنا لم يستشرني أحدٌ في القدوم إلى هذا العالم، ولم أُوقِّع على أي وثيقة تُفضي برغبتي بذلك!

لقد كنتُ ببساطة النتيجة المتوقعةَ لخُطتكما المجهولة!

فلماذا تلومان عصياني ولا تلومان نفسيكما بعدم تأمين الحب اللازم لنموي!

لماذا تلومانني على كلَّ الذين أحببتهم في حياتي أو الذين اعتقدتُ أنني أُحبهم لأعوِّض نقص حبكما لي!

وبالمناسبة عدم القدرة على التعبير عن الحب لا يختلف عن عدم الحب بشيء.

ها أنا أتقلب كجنينٍ في هذه الحياة لم تعبُر مشيمته نقطة حب واحدة فبقي جنينًا لأكثر من عشرين عامًا وعليه أن يتزوج الآن!

أنا اليوم خائفة...

رغم أنني على يقين بحبه لي وبحبي له، إلا أنني خائفة.

خائفة من تكرار المأساة...

خائفة من تلك الفكرة... أنني سأقضي حياتي كلها بقرب شخص واحد وأنا التي اعتدتُ أن أقضيها بقربي أو على مسافة أمتارٍ أو عدة كيلومترات مني.

أجل خائفةٌ من الوسادة التي سأنام عليها بجانبه، أخاف أن تتساقط عليها أفكاري وأحلامي وألا تكون ملائمةً له.

خائفة من أنه سيراني طيلة الوقت. . . . سيراني أكثر مما سأرى نفسي وأنه سيُحدثني أكثر مما قد أُحدّثها .

هل من المفترض أن تكون الفكرة مخيفةٌ إلى هذا الحد !

أن يكون أحدٌ أقرب إليَّ مني. . .

أليس من المُفترَض أن ترضيني فكرة الامتلاء به بعد أن عشتُ أعوامًا من الخواء .

أأصبح الحب يُخيفني كعدم الحب !

أم تُراني خائفة من أن أُخْفِقَ مع أولادي وأن أخفي عنهم الحب كمن يخفي الحلوى لأنني أخاف على قلوبهم من النخر !

أُزيلُ الضباب من رأسي وأحاول أن أشغل نفسي بترتيب حقيبتي، أضعُ ملابسي الداخلية بحذرٍ في الحقيبة وأغلقها بسرعة كأن الدانتيل والحرير والشيفون قد تلتهم أجزاءً من لحمي.

كيف لا وقد حُتِّم على الشرقية أن تتحوَّل من طفلةٍ إلى امرأةٍ دفعةً واحدة.

البارحة كنتُ أمشي على طريق المدرسة الإعدادية مُقوسةً ظهري لأطمس معالم أنوثتي الأولى.

أخبئ في جيبي كمياتٍ من السكاكر وبسكويت السمك المحلى لأُمَوّهَ بحر أستروجيني.

أقفُ محتارةً بين المدِّ والجَزْر مِن حولي...

بين الشفاه اللامعة والحواجبِ المنمَّقة وبين الرؤوس المحجبة والجلابيب الطويلة.

تائهةٌ بين أشخاصٍ يعبدون الجمال ويشجبونه في آنٍ معًا.

تائهةٌ في عالمٍ يلعنُ رجاله ونسائه فتيات الإعلانات...

يصبُّون غضبهم على شفاههنَّ الممتلئة...

وأنوفهنّ الإغريقية. . .

وسيقانهنّ الطويلة الحليقة. . .

وأجسادهنّ المكتنزة بالأنوثة. . .

تم ينفضُّ الرجال بعد كل إعلان بحثًا عن شبيهة لما قد رأوه وتنفضُّ النساء لتتشبه بهنَّ خلية خلية.

كيف لنا أن نكون مزدوجين إلى هذا الحد !

نقف على مسافة ثابتة من أجسادنا، ونُتقن فنَّ التنقل بين البراءة والإغراء في ليلة واحدة!

طَرَقَ ملقط غسيل نافذتي ولحسن الحظ قطع عليَّ سلسلة أفكاري. . .

يبدو أنها رسالةٌ مستعجلة من كرم.

لحظاتٍ ووصل المرسال. . .

كانت السلة مليئة بقطع الشوكولا مع وردة توليب بنفسجية وورقةٍ بيضاء .

بقي كرم واقفًا على النافذة وكأنه ينتظرني أن أقرأ ما كُتِبَ فيها .

شممتُ التوليب فغزَتْ رائحتها رأسي كغيمة بنفسجية غسلَتْ بمطرها سواد ما قد مضى.

فتحتُ الورقة:

كمن يبحثُ عن شَفَةٍ في كومة كرز

أبحثُ عنكِ كلَّ ليلة

أُتراكِ في موعدٍ سرّي

مع جبران. . . . مع إيميل سيوران

يُشبعان فكركِ عناقاً وقُبَلاً!

كم من مرةٍ قتلتهما . . . . غيرةً

دفنتهما في وجهي

لكنَّ الميتُ يحيا أكثر إن قُتِلا

كم من مرةٍ سكبتُ القصائد على جسدي

وأخذتُ دروسًا خصوصيةً . . .

في السقوطِ نحو الأعلى

أين أنتِ؟

أتسلقتِ السماء

كي تعصري الكحلا

لا أرى منكِ إلا خصل شعركِ

أستذهبين إلى المدرسة

بضفائركِ الطويلة؟

أيُّ مدرسةٍ تلك

التي تُعلِّمكِ كيف تكونينَ ربةً

وأبقى أنا طفلا

وكيف للطفل أن يكره؟

كيف للطفل أن يكره!

إن كُنتِ تعرفين متى يجب أن تكوني ليلى

ومتى يجب أن تنقضي عليَّ

متى تغمسين ضلعكِ في دمي

ومتى تصبحين توتًا في السلة

رنَّ هاتفي برسالة نصية: (لا أريدك أن تكوني أحدًا آخر لتكتبي لنفسكِ قصيدة. . . أريد أن أكون أنا هذا الآخر وأن أكتب لك

عشرات القصائد لتبقي أنتِ أنتِ مدى الحياة. . .) وفي نهايتها إحدى الرموز الإلكترونية الصفراء .

كان ما يزال واقفًا أمام النافذة. . .ابتسمَ ثم أرسلَ لي قُبلة عبر الهواء . . .

كيف لي أن أفكر بسودواية وفي حياتي كرم!

إن الإنسان لخبيرٌ في تعكير نفسه وفي قتل لحظات السعادة، ينبش في ذاكرته عن أي شيء ليُعكِّر مزاجه.

كيف لي أن أظلم نفسي وألا أعيش هذا الحبَّ حتى أقصاه.

ابتسمتُ له والدموع تترقرق في عينيَّ وأرسلتُ له قبلةً بدوري. . .

فضحكَ من جديد . . .

قد تشعرُ أحيانًا برغبةٍ في تقبيل ضحكة أحدهم. . .

في تقبيل نظرةٍ نظرها إليك. . .

في تقبيل بحَّة صوته على الهاتف، أو لحنِ أغنية يذكركَ به، أو حتى عطرٍ مُشابه لعطره. . .

قد تشعرُ برغبةٍ في تقبيل إيموشن أرسله إليكَ في محادثة كتابية. . .

ألم تشعر برغبةٍ في قرصِ ذلك الوجه المدوَّر الأصفر وعناقه؟

والأجمل من ذلك أن ترغب بتقبيل نفسكَ، بعد أن تسمع صوت قُبلة مرسلة إليك من مكان ما في هذا العالم.

وحدها هذه الأشياء التي لا يُمكن تقبيلها . . .وحدها جديرةٌ بالتقبيل.

رميتُ كل مخاوفي من النافذة وأغلقتها، ثم حملتُ كل الأشياء التي أرغب بتقبيلها إلى فراشي.

صوته، عينيه، ذلك القلب الذي ينبض داخله من أجلي. . .

واستعددت لأغفو، فغدًا زفافي على من أُحِب.

شايف البحر شو كبير. . . . كبر البحر بحبك

سألتُ كرم مرّةً:

لماذا لا يطير الإنسان؟

فأجابني: الإنسان يطيرُ يا صديقتي، لكنَّه عندما يطير لا يراه أحد، حتى هو قد لا يرى نفسه. . .

_أين طرتِ؟

_ما الذي خطر ببالكَ كي تَظُنَّ أنني قد طِرت؟

_تلامسين قِرطكِ الذي بشكلِ جناحين منذ نصف ساعة وتبتسمين.

لا بُدَّ أنكِ تطيرين. . . . خُذيني معكِ.

يمدُّ يده إلى جيب سُترته الربيعية ويُخرِج التذاكر كي يراها مُفتش القطار، ثم يضع الحقائب في المكان المخصص لها .

أجلس أنا بقرب النافذة. . . . ويجلسُ بجانبي مُمسكًا بيدي.

_كرم. . .

_نعم حبيبتي ؟

_لماذا تُحبني ؟

يُحرِّك الستار عن النافذة، ثم يسترخي في مقعده. . .

ينظر في عيني. . .أشعر بأنفاسه. . . يُمسكُ يدي من جديد ثم يغمض عينيه:

_عندما كنتُ طفلًا صغيرًا، كانت عيناي معلقتان دومًا بالنوافذ الوحيدة المضاءة ليلًا، كنتُ مُغرمًا بالخيالات المُتحرِكة خلف الستائر.

كنتُ أُغمض عينيَّ نصف تغميضة، لأشعر بها تختلط مع الضوء وتُعانق أهدابي.

كبرتُ وما زلتُ أبحث عن النوافذ الوحيدة المضاءة ليلًا، لكنني نقلتُ اهتماماتي من المنازل إلى البشر...

رغم كل الظُلمةِ من حولكِ إلا أنَّ نافذةُ روحكِ مُشعةٌ بنورٍ خافتٍ يُدغدغُ طفولتي.

لا أعلم كيف بإمكاني أن أُريكِ أنكِ لستِ مُظلمةً كما تظنين وأنَّ الخيالات خلف ستائركِ توحي بخيالٍ يشبهُ خيالي أو ربما أنا...

يشدُّ على يدي، يُقبلني من وجنتي ثم يُغمِضُ عينيه من جديد.

يصدرُ عن القطار صفيرٌ عميق يؤذن بالانطلاق.

كم رائعٌ ذلك الإحساس أن تشعر أنَّ العالم يتحرك من حولكَ ويعرض نفسه بكلِّ جماله عليك، وأنتَ في مكانكَ لتستمتع به فحسب.

أُقرِّب قطعةً صغيرةً من بسكويت المُربى حتى تُلامس شفاهه فتوقظُه رائحة الفانيليا .

_امممم . . . نحتاج لكأس شايٍ بالقرفة .

مع رائحة الفانيليا ونكهة القرفة ابتدأت رحلتنا وانتهت بأصوات النوارس وباللون الأزرق الذي ملأ نوافذ القطار .

حجزنا غرفة في فندق تُطلُّ على البحر، وتركني كرم في الغرفة لأُجهّز نفسي بعد أن أخبرَني أنه سيقوم ببعض التحضيرات . . .

أخذتُ حمامًا سريعًا، صففتُ شعري، وارتديتُ الفستان الأبيض .

الفستان الذي له تاريخٌ طويل في حياة كل فتاة، ربما لأنه التجسيد الوحيد الممكن لأن تكون أشبه بأميرات ديزني . . . .

بطبقاتِه المنفوشة، اللآلئ، الدانتيل، وذيل الموسيلين الطويل .

أجل الإنسان يطير . . .

تحسستُ جرح كتفي. . . وتذكرتُ كلامه:

(كل جرحٍ منبتٌ لجناح)

أغمضتُ عينيّ. . .

فشعرت بالهواء يداعب ريشي. . .

حلَّقتُ عاليًا . . .

كل الطيور حبيسةٌ في سمائها وأنا حُرةٌ في عينيكَ.

وضعتُ أحمرَ شفاهٍ خمري اللون. . . .

ألقيتُ على نفسي قُبلةً في المرآة. . .

يبدو أنني أخيرًا حلَّقتُ في غرامي. . .وفي غرامِه.

اختلتُ بنفسي أمام المرآة. . .

لقد أصبحَت مرآةً سحرية، بل كل مرآةٍ هي مرآةٌ سحرية حقًا، يكفي لكل فتاة أن تلقي تعويذةَ حبٍ على نفسها وستكون كذلك. . . . ستظهر داخلها أجمل وأجمل. . .

ما إن زينتُ شعري بتاجٍ لامع حتى سمعتُ صوته:

_وردتي الملائكية، تبدين رائعة.

قالها وهو يتأملني وعينيهِ تسقيني جمالًا ثم قبّل كتفي. . .قبّل جناحي. . .

حَمَلَ الحقائب، وخلال دقائق كُنا على سطح مركبٍ في وسط البحر، لتشهد الأمواج والأسماك والغيوم على زفافنا .

على سطح مركبٍ خشبيٍّ عتيق تُغازِلُه الأمواج، يطفو على سطح الماء وكأنَّ بوالين الهيليوم المربوطة بجوافه هي التي تحملهُ. . .

_غنّ لي.

_ماذا تريدُ أن أُغنّي لك؟

عانقَني وأضاف:

_أيَّ شيء.

ألا يجب أن يكون لكل زفافٍ أغنية؟

_ها هو البحر يُغنّي من أجلنا.

_البحر هو الأغنية، فلنرقص إذن على متنِ نغماته...

أليكِ الشجاعة لتراقصيني تحت الماء؟

نظرتُ إلى فستاني وتساءلتُ: حورية أم أميرة؟

وكانت إجابتي خلال لحظات بأن حاوطتُ عنقه بذراعي وما كان من الماء إلا أن حاوطنا من كل اتجاه.

_أتخشين الغرق؟

_في هذه اللحظة بالذات أخشى عدم الغرق.

لم أعد أميّزَ بين الموجة وبين يديه. . .

بين مُلوحة البحر وبين شفتيه. . .

بين زَبَدِه وبين أنفاسه. . .

غارقةٌ أنا بين أزرقين. . .

أزرقٌ يحيطُني من كل جانب وأزرقٌ يصبُّ داخلي من عينيه، ففي بحرهما ذلك الهدوء الذي يسبقُ العاطفة. . . .

هدوءٌ يُجمّد أشرعة قلبي، يقودني بلا وعي ليجعلني في المنتصف لقمةً سائغةً بين شفاهِ الغرق.

_أمسكي يدي ولتسترخي. . . قال لي.

استلقيتُ على ظهري على سطح الماء، وطفونا إلى جانب بعضنا البعض. . .

غرِقَتْ أذناي بسمفونية زرقاء . . . على كل درجات سُلّمها نغمةٌ واحدة . . . (أحبكِ) .

طفونا كهذه الغيوم التي تعلونا وشكلناها كما نريد . . .

قلوبٌ بيضاء . . .

حبيبان متعانقان . . .

ووجهٌ يباركنا بابتسامته . . .

وكلما كانت تقترب الشمس من الالتحام بالبحر . . .كنا نشتعل دفئًا وشغفًا وكأنَّ الشمس ذابَتْ في الماء وانتقلَت إلى داخل جسدينا عبر مسامنا . . . . إلى أن ودّعتنا تمامًا . . .ودَّعتنا بأن أصبحَتْ داخلنا . . .

لا إنت حبيبي ولا ربينا سوا

أشعلتُ شموعًا مُعطرة ووزعتُها على سطح المركب لتكون محيطةً بكومةٍ من الوسائدِ الطرية التي استلقينا عليها لنعُدَّ النجوم.

أنظرُ إلى النجوم وأنتِ مستلقيةٌ على صدري، وأصابع يدي تتجوَّل على ملامحكِ، كأنني أتفقدُ أنها في مكانها.

أعلم أنَّه لا موهبةَ لديَّ في الرسم، لكنني سأرسمكِ يومًا ياورد.

إنَّ كل إصبعٍ من أصابعي يُخزِّنُ ذاكرةً لمسيةً لملامحكِ.... التي أشكُّ أن تكون بصماتي عليها... إنما تقاسيم وجهكِ هي من تحتل رؤوس أصابعي.

إصبعٌ... بصمتُه شَفَتُكِ السفلى.

وإصبعٌ... بصمتُه عيناكِ.

وإصبعٌ بصمتهُ شاماتُكِ.

لو ارتكبتُ يومًا جريمة، سيمسكون بكِ حتمًا . . . لأنَّ وجهكِ وحدهُ سيملأ ساحتها .

أرفع يدي نحو الأعلى وكأنني أُغطسها بسواد السماء . . . وبنجمة، نجمتين، ثلاث نجمات .

وأعودُ بها إلى وجهكِ، كطفلٍ يرسم رسمةً مكونةً من أرقامٍ يصلُ بينها، وهو يعلم جيدًا ماهية لوحته قبل أن يبدأ بها، لكنّه يستمر بالوصل بينها .

واحد .

اثنان .

ثلاثة .

أربعة .

خمسة. . . .

تعضِّين طرف إصبعي. . .فتلتهمُ اللوحةُ رسّامها وتتبعثرُ كُلَّ ألوان جنونها عليه.

كيف لرَّسامٍ أن ينجو يومًا من لوحتِه!

هو لا يملكُ إلا أن تَعبُرَهُ ألوان قوس قزحٍ لونًا لونًا، فتدورُ داخله الألوان كقرص دالتون، ويغرقُ في ضجيجٍ أبيضَ عميق.

_كنتُ أرسمكِ.

_هل بدوتُ جميلة في لوحتكَ؟

_بل اللوحة هي التي بَدَت جميلةً بكِ.

_سأحضِرُ إذن قليلًا من الفراولة المُغطسة بصلصةِ الكاكاو.

أحتاجُ مزيدًا من الحُمرةِ لوجنتيَّ، وقليلًا من السُمرة لجبهتي وأنفي وكتفاي.

تضحكُ لوحتي وتختفي، ثم تعودُ مُحمَّلةً بطبق فراولة وصلصة كاكاو.

تُغني لوحتي فتسألني:

_أما زلتَ سترسمني.

_نعم.

_نحن متعادلين.... لطالما كتبتُكَ.

تجوعُ لوحتي .... فتُطعمني حِصتها.

تعطشُ لوحتي .... فتسقيني.

تبردُ لوحتي مع نسماتِ الصباح الأولى، فأذهبُ إلى الحجرة الوحيدة في المركب لأُحضِرَ شيئًا نتدثر بهِ.

أفتحُ إحدى الحقائب، وأبحثُ داخلها، فأجدُ مِعطفًا ذكوريًا كُحلي اللون! وهو بالطبع ليس لي.

ما القصة؟

هل من الممكن أن يكون قد حَصَلَ لَبسٌ في الفندق بين حقائبنا وحقائب أشخاص آخرين.

هل من أوراق ثبوتية تدلُّ على هوية صاحب الحقيبة؟

أدسُّ يدي فترتطم بشيء صلب، ما كان إلا كتابًا مألوفًا.

أنا متأكدٌ أنني شاهدتهُ في مكان ما.

ألامسُ غلافه الخشن القديم الذي كان بدون عنوان، ثم أفتحه فأجدهُ مُجوفًا من الداخل كصندوق، وبداخله خُصل شعرٍ وسكين!

أشعرُ بدوار...

أهوَ دوارُ البحر أم دوارُ الحُلم الذي استحال حقيقة!

أشعر بذلك الضوء الأبيض يرتطم بعيني من جديد...

أسمع صوت لهاثه...ووقع قوائمه...

قوائمه؟! بل أقدامه!

وما من صوت زئير، بل صوت يقول: (لا تقتلني)

هذه البزة العسكرية لا تليق به. . . كم يبدو جبانًا داخلها . . .

أراه مربوطًا إلى الشجرة وأنا أقصُّ خصل شعره لأحتفظ بها . . .

أحتفظُ بها كذكرى قَتْل!

هل أنا قاتل؟!

كيف لعقلي أن يعبث بي بهذا الشكل، بحيث أعجزُ عن التمييز بين الحقيقة والحلم!

هل الحلم كان رسالةً من عقلي الباطن ليخبرني بها أنني قاتل؟

أم أنَّ ما أعيشه الآن هو حُلم؟

هل ورد حُلم أيضًا!

كيف لي أن أتأكد أن حواسي لا تخدعني؟!

ففي الحلم أيضًا أستطيع لمس الأشياء . . .

تَذوُّق النَّكهات . . .

وشمَّ الروائح . . .

وقد أعجز عن الاستيقاظ . . .

هل من أحدٍ هنا ليوقظني ؟

لكن ماذا إن استيقظتُ واختفَتْ ورد !

هل هي ابتكارُ عقلي وحبيسةٌ داخله فقط !

أتسللُ على رؤوس أصابعي نحو الأعلى بهدوء . . .

ورد ما زالت كما تركتها متكئةٌ على الوسائد . . .

أنا أراها . . . فهل هي فعلًا هناك !

حسنا يجب أن أستجمع قواي لفهم ما يجري . . .

إما أنني أحلم الآن أو أنني فعلا قتلت لُيث .

هل قتلتُه لتصبح ورد لي ؟ لأُنحيه من حياتها !

وقد . . . وقد يكون الأمر برمَّته خدعة!

لكن من الذي سيخدعني إن لم يكن أحد يعرف أحداث الحلم غيري!

بإمكاني إلقاء هذه الحقيبة في الماء كأنَّ شيئًا لم يكن. . .

أظنُّ أنه من العدل أن أخفي آثار جريمةٍ لا أذكر أنني ارتكبتها . . .

لكن كل أدلتها تشير إليَّ. . .

أدلتها؟ ما هي أدلتها!

حلم وخصل شعر وسكين!

يجب أن أخبرَ ورد بكل شيء . . .

لكنها ستنظر إليَّ كقاتل أو مجنون. . .

هل أنا مجنون؟

كيف للإنسان أن يدرك أنه مجنون وهو غير قادرٍ على الإدراك!

هل مجرّد تفكيري بأني مجنون ينفي عني ذلك!

لا أظن أن المجنون سيتساءل فيما لو كان مجنوناً . . . بل سيعيش جنونه حتى أقصاه فحسب.

صعدتُ الدرج من جديد، فاستدارتْ ورد . . .

_أين كنتَ. . . لقد تأخرتَ!

أضعُ أمامها الحقيبة، وأعطيها المعطف، فتنظرُ إليه بريبة ثم ترتديه.

_لمن هذا المعطف يا ورد؟

تصمت وتنظر في وجهي كأنها تراني للمرة الأولى. . .

أُخرِجُ خُصل الشعر من الكتاب_الصندوق.

فتمسكها، وترميها في الماء!

_لماذا ترمينها؟

_كرم هذه الخصل لليث، وأنتَ تُدرك ذلك فما الهدف من بقائها . . . . وهذا المعطف أيضاً . . . .

فما الهدف من الاحتفاظ بأشياءٍ تخصُّ جُثة!

_ما الذي قد أوصل هذا المعطف والكتاب للمركب؟

_أنتَ من وجدها . . . أنتَ أخبرني.

ترنُّ كلماتها في أذني:

(**نحن متعادلان. . . . لطالما كتبتكَ**)

لقد كانت نظرتها جامدة ومخيفة. . .

هل من المعقول أن تكون هي من ورطتني بجريمة قتله!

أم أنها شاهدة عليها فحسب!

أم أنها تتلاعب بي!

كيف للحبيب في لحظة أن يتحَّول من صدر الأمان الذي تتوسَّده إلى موقع شك!

_ورد . . .

إنني عاجزٌ عن فهم أي شيء . . . . كيف سأخبركِ إن كنتُ أنا عاجز عن الفهم !

لقد كان حُلمًا يا ورد . . .حُلم

كان يركض . . . وكنتُ أركض خلفه .

لم يكن هو، بل كان ليثًا . . . . أقصد أسدًا صغيرًا .

لقد طعنتُه بهذه السكين وقصصتُ له شعره .

لكنه كان حلمًا . . . . أقسم على ذلك .

أو هذا ما أذكره .

_قد يكون(ليث) حُلمًا، ليس فقط الأسد الصغير .

_ورد، لستُ بحاجة كي تعبثي أنتِ بعقلي أيضًا .

_أنا لا أعبث بعقلك . . . أنا أخبركَ الحقيقة .

إنَّ كل حياتكَ يا كرم مجرد حُلم .

لكنك لستَ من يحلُم، بل أنا التي أحلُم.

وليس حُلم نومٍ. . . . بل حُلم يقظة.

وأحلامي يا كرم هي أحداثٌ على الورق لا على الوسائد .

_ورد، أنا حقيقي.

أنا قادرٌ على رؤيتكِ ولمسكِ.

اقتربي من صدري واستمعي لنبض قلبي.

أنا حقيقي. . .

لديَّ ماضٍ، ولقد فكرتُ كثيرًا في المستقبل.

أنا إنسانٌ له ذاكرة. . . .

أتذكرين رحلاتنا، التمثال، شوارع دمشق، طفولتنا، وليلة البارحة!

_من الذي أخبركَ أن الشخصيات الورقية لا ذاكرة لها، لها ذاكرة حبرية يضيفها الكاتب لعقلها الورقي.

أنتَ لامستَني، أحببتَني داخل عقلي!

وقفتَ على نافذتكَ وكتبتَ لي القصائد . . . داخل عقلي.

تنفستَ ونبضتَ. . . وقرأتَ داخل عقلي.

أنتَ لستَ على سطح هذا المركب، بل أنا وحدي على سطحه، وأنتَ داخل عقلي.

ذاكرتكَ. . . ما هي إلا مزيجٌ من ذاكرتي وخيالاتي.

_لكنني كنتُ أشعر بكل ألمٍ أو حب أو سعادة من أعماق أعماقي!

_طبعا سأصدقكَ. . .

فأنا فقط في البداية كنتُ أتحكم بالأحداث، ليس الكاتب هو الذي يُملي على الشخصيات أحاسيسها وأقوالها وأفعالها، بل إن كل شخصيةٍ تكتسبُ روحًا . . . . روحًا متفردة خاصة بها تتمرَّدُ على الكاتب وتعيش دورة حياتها الورقية كما يحلو لها.

إن الشخصيات الورقية تمتلكُ روحًا، عقلًا، قلبًا وجسدًا كالذي تشعر أنت به الآن.

لا بُدَّ أن تشعر أنكَ حقيقي، ففي كثيرٍ من الأحيان خُدعتُ أنا بكَ وظننتكَ كذلك!

_أتعلمين. . . . لستُ مقتنعًا بكلامك، قد تكونين قرأتِ مذكراتي فحسب وذلك سيفسر كل شيء.

_عزيزي، بل أنا من كتبتها.

مذكراتك امتدادٌ لأفكاري.

_هل برأيكِ الأمر عادل؟

_من الذي أخبركَ أن الحياة عادلة؟

على الأقل سيتاح لكل شخصية ورقية أن تُكرر لحظة سعادة عاشتها مع كل قارئ إلى مالانهاية ودون أن يخطر على بالها تحمل عبء الانتظار كي تعيشها .

_لماذا تكشفين عن نفسكِ أمامي ؟

_لأنك الوحيد من بين كل شخصياتي الذي شككتُ لوهلة أنك حقيقي . . .

لقد تورطتُ بروعتك . . .

معكَ فقط كنتُ كما أريد أن أكون، لذلك من المجحف بحقي ألا أودّعكَ .

لقد بدأتُ أفقدُ التركيز، لكنني قادرٌ على تنشق هواء البحر المالح وملامسة حبال السفينة، إنني أشعرُ بخشونتها وبنعومة خشب الأرضية يدغدغ قدمي .

_بماذا تفكر؟

_أفكر أنه لو كنتُ جزءًا من عقلكِ يا ورد لما كنتِ لتسأليني هذا السؤال (بماذا أفكر)!

لا أدري ما الذي قد وضعتِه في طعامي، لكن لو كنتُ ورقيًا ما الحاجة لوضع منوِّمٍ لي من الأساس!

يكفي أن ترميني من حافة أوراقك أو أن تطعنيني بقلمكِ...

أنتِ تهلوسين يا ورد...

لقد استكثرتِ حُبِّي على نفسكِ، فظننتِ أنني أحد أبطال رواياتكِ!

أنتِ...

ت....ه....ل....و....س....ي....ن

كل ما أشعرُ به الآن ضبابٌ يملأ رأسي ولونٌ أزرق في رئِتي...

إنت يللي بكرهو واللي بحبو إنت

إنه يومي الأخير هُنا . . .

لم يَعُد هناك هدفٌ لوجودي بعد أن أتممتُ الفصل النهائي من روايتي.

لا أدري لم القُرّاء مولَعون بالنهايات المأساوية!

ربما لأنَّ النهايات السعيدة تُشعرهم بترفٍ بعيد المنال. . .تجعلهم يدركون مدى تعاستهم!

إنَّ الإنسان يشعر بقليل من السعادة عندما يعلم أنَّ الآخرين يتعذبون مثله، ويميل نحو من يشاركه المأساة حتى لو كان ذلك على الورق.

استيقظتُ صباحًا وبدأتُ بالهرولة على الشاطئ، علَّهُ تتناثر مني كل الشخصيات التي سكنتني أو لتنطلق خارجي كالزفير.

أو ربما لقد اعتدتُ على كل الجثث المكدسة داخلي وكل أولئك المعتوهين والمريضين نفسيًا الذين يتسكعون على أرصفة روحي، ومشكلتي الوحيدة معكَ.

كرم...

قبل وجودكَ اخترعتُ عشرات الشخصيات...اختلقتُها وقتلتُها دون أن تنتبه لوجودي.

جعلتُها تشعرُ بأقصى درجات السعادة دون أن تفكرَ بالامتنان لي...لأنها لا تدري بي.

جعلتُها تعيش أقصى درجات الألم دون أن تكون قادرة على لومي... أطلقتُ على رؤوسِها النار وعلّقت لها مشانق داخلي.

ولا بدَّ من أن أعترف على الأقل أمام نفسي أنّ معظم من دخلوا حياتي سمحتُ لهم بالدخول وجذبتهم ليكون كلٌ منهم فريستي الورقية القادمة.

لكنكَ تحديدًا تسللتَ من ثقبٍ بين خيالي وقلبي.

لقد كنتَ خطيئتي المقدسة التي كنتُ سأخْدَعُ بها . . .

لم أجعل منكَ طبيبًا أو مهندسًا . . .

لم أجعلكَ فارع القامة أو عريض المنكبين، ولم أُخرجكَ من مجلة، ولم أسرقكَ من منصَّة لعرض الأزياء.

لم أجعلكَ بارعًا في الرسم أو العزف.

لم أحاول أن ألتقي بكَ في مكتبة أو داخل مصعد أو في غرفة الكترونية، بل كنتَ ابن الجيران اللطيف الذي شاركني طفولتي يومًا . . .

صديقٌ لم أحظى به. . .ولن يتكرر.

صديقٌ لطفلةٍ لا أدري إن كانتْ أنا !

لقد كنتَ تُشبهني. . .

إنَّ الإنسان يبحث عمن يشبهه دومًا .

من يرتدي لباسًا لا يختلف عن لباسه، من يتكلم كلماتٍ ككلماته ولغة كلغته . . .

من يقرأ كتبًا ككتبه، ويدافع عن أفكارٍ كأفكاره . . .

حينها سيسمح لنفسه بحُب هذا الآخر . . .

بينما في الحقيقة هو لا يحبُّه بل يحبُّ تشابهه معه . . .

في المحصلة هو يحبُّ ذاته !

ولهذا اخترعتكَ . . . لأحبَّ ذاتي .

لكن لماذا اخترتُ لكَ الغرق ؟

لأنني في كل مرة أتأمل فيها ملامح حروفكَ كنت أتذكر أسطورة الأمير الإغريقي نرسيس الذي عشق انعكاسه في ماء البحيرة دون أن يعرف

أنَّ الماء يعكس وجهه، وعندما أدركَ أنه لن ينال هذا الانعكاس أبدًا أغرق نفسه ومات من اليأس والحزن.

لقد كنتَ بمثابة (نرسيس) بالنسبة إليَّ، أغرقتكَ لأنني أعرف أنكَ الوجه الجميل مني الذي لن أناله يومًا.

في كل الأوقات التي مضت كان يخالجني شعورٌ بالكره والحب في آنٍ معاً نحوَكَ.

هل يمكن للإنسان أن يشعر بالحب والكره تجاه الآخر؟

يحبّه لا لسبب ولكل الأسباب....

ويكرهه لأنه من المحال أن يكون له....

أنا أكرهكَ لأنكَ لا ولم ولن تصبح واقعًا...

وربما أُحبكَ لذات السبب السابق!

جلستُ على الرمل لأتأمل الأزرق العميق، فاصطدمَ بقدمي شيء ما . . .

نبشتُ الرمل لأخرجه، فما كان إلا جزءٌ من طبقٍ قديم. . .

ضحكتُ كثيرًا وأنا أتلمسُ تلك النقشة التقليدية (روميو وجولييت) .

أبرز عاشقين على مر التاريخ تعذبا بحبهما . . .

وما الذي نفعله نحن؟ !

نُزينُ أطباق طعامنا بهما، وكأننا نستلذُّ بالتهام الأوجاع المقدسة مع طعامنا !

رميتُ الطبق في البحر بكل قوتي، فلتلتهم أيها البحر الاستحالة قبل أن تلتهمنا .

أتصدقُ هذا يا كرم!

كيف نقدس الجراح، بل كيف نخترعها لنقدس أنفسنا !

ألهذا السبب اخترعتكَ!

ألقيتُ على البحر النظرة الأخيرة ثم عدتُ أدراجي نحو الفندق، وضبتُ حقيبتي واتجهتُ نحو موظف الاستقبال، كي أسدد فاتورة اليوم الأخير ولأستعيد أوراقي الثبوتية.

استلم الموظف مفتاح الغرفة مني، ثم نظر في الحاسوب أمامه وقال لي:

_سيدتي إنَّ الفاتورة مدفوعة بالكامل من قبل زوجكِ، وبإمكانكِ استعادة دفتر العائلة... تفضلي.

ابتلعتُ لعابي وشعرتُ بجذرٍ في ساقيَّ....

أمسكتُ دفتر العائلة بين يدي، فكان اسمه وصورتهُ على الصفحة الأولى.

كرم....

تمَّت.